الإسكندر

فاتح العالم القديم



دار العلم للملايين


م. سرمد حاتم شكر



الإسكندر

فاتح العالم القديم

دار العلم للملايين
بيروت

دار العلم للملايين

ص . ب : ١٠٨٥

تلفون : ٣٠٤٤٤٥ – ٢٢٤٥٠٢ – ٢٩١٠٢٧

بيروت – لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٠

الطبعة العاشرة

شباط (فبراير) ١٩٧٩



الفاتح الذي لم يقهر

منذ ثلاثة وعشرين قرناً شَنّ الإسكندر الكبير حرباً قاسية ، عَبْر بلاد الفرس ، ومصر ، والهند .

ما هو السبب في هذه المغامرة ؟

البعض يقول إنه كان يحلُم بتوحيد الشعوب في ظلّ حكومة واحدة . وآخرون يؤمنون بأن الإسكندر كان مصاباً بجنون العَظَمة والسيطرة . والبعض لا يزال يعتقد أنه أراد أن ينشر حضارة اليونان وعلومهم في أنحاء العالم .

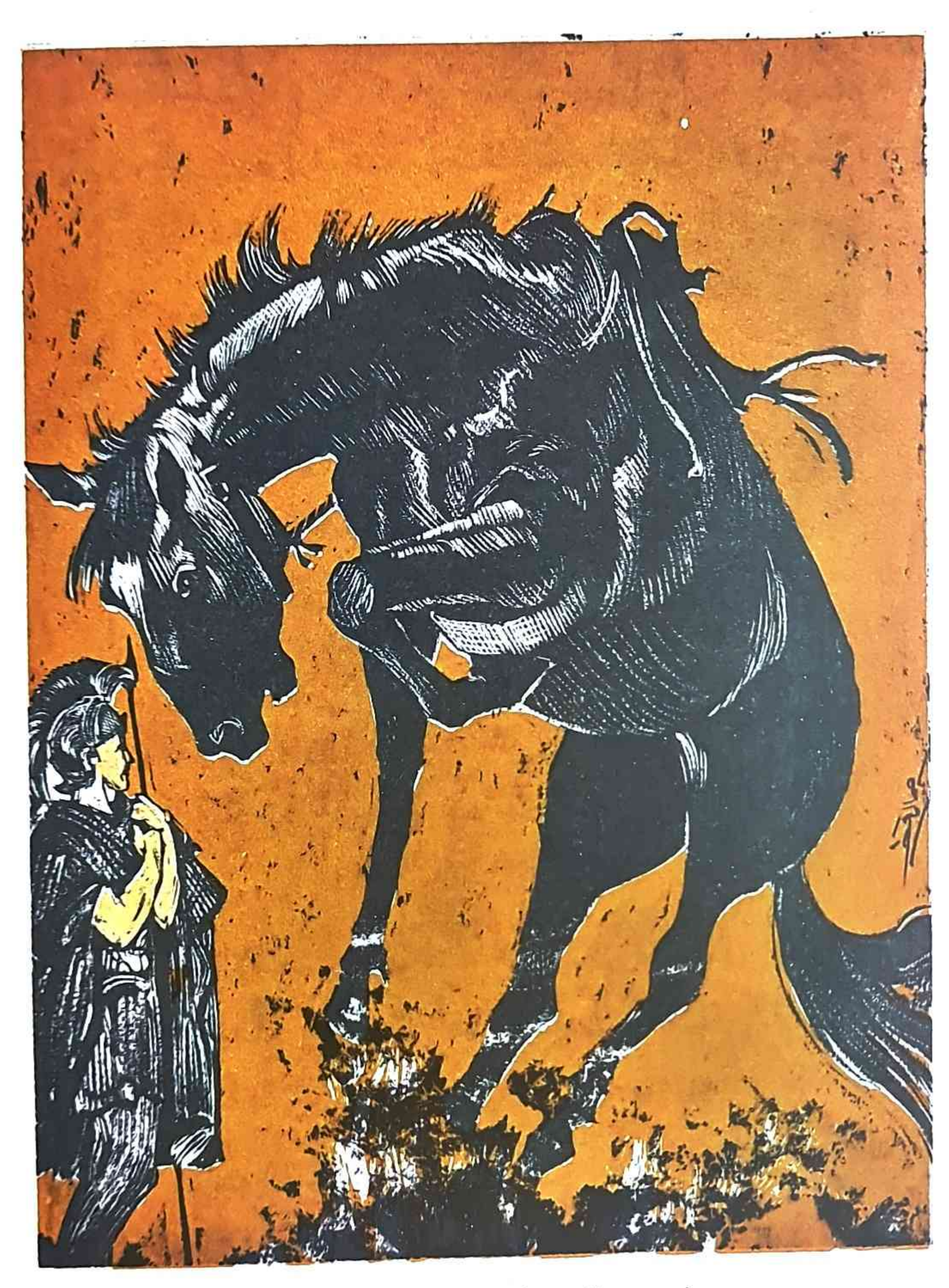
والآن ، سنرى : من هو هذا الناجح العظيم الذي شغل العالم حيناً من الدهر ...!!

الاسكندر غلاما :

وقف ذلك الغلام تحت الشمس المحرِقة...وكان معتدل القامة ، ذا شعر طويل أشقر ، وأنفٍ مستقيم ، وعينين زرقاوين ؛ تلوح على وجهه علامات الشجاعة والقوة ، وتجول في خاطره أحلام لا يحلُم بها إلا القليل من الناس .

وبينما كان الإسكندر ، تحت أشعة الشمس ، يتطلّع إلى ما حوله ، حدث اضطرابٌ في ساحة القصر .. فادار رأسه ليرى أسباب هذا الاضطراب ، وهو لا يزال يحدّق في الشمس المحرقة . فإذا به يشاهد والده « فيليب » يقترب ... فيليب القوي الشديد ، الأعور ، الأعرج . فلوّح له الإسكندر بيده .

كان يحيط بفيليب رجال حاشيته ، والقُوّاد ، والفرسان الذين كانوا يركبون الخيل كالشياطين . وكان ذلك كله في مدينة « بيللا » عاصمة « مقدونيا » اليونانية . لم تكن هذه المدينة فخمةً كغيرها من المدن ، بل هي



(بوسيفالوس) المتوحش يصهل ويثب

قرية جبلية ، فيها أكواخ حجريّة ، وثُكنات للجنود ، ومعابد منثورة هنا وهناك تمثّل عبادة كلّ فئة من الناس .

ومتى كان هذا :

كان قبل الميلاد بثلاثمائة واثنتين وأربعين سنة . وربما تبدو هذه الفترة طويلة ، لكنها ليست طويلة بالنسبة إلى التاريخ . ولو أننا قدّرناها بفصول حياة الإنسان لما زادت على سبعة أجيال .

كان جُند الملك قد عادوا من رحلةٍ قاموا بها إلى القرى المجاورة ، حيث اشتروا بعض جيادها . وكانت هذه الجياد تعدو بهم في الساحة ، وفيليب يرقبها بعينه الخبيرة .

أما الإسكندر فقد فَتَنَهُ هذا المنظر ، وجمالُ الخيل ، وراح يتطلّع إليها ، من ساحة القصر ، بلهفة ثم إنه اعتلى سياجاً يمكّنه من النظر .

كانت الخيل مطْلَقَة بدون سروج : وقد لَقِيَ المقدونيّون الماهرون صعوبة في ركوبها وإخضاعها .

وجيء بحصان لم يستطع أحد ـ حتى الملك فيليب ذاته ـ أن يذَلِّلَهُ . وكان هذا الحصان الشديد يلقَّب بـِ « بوسيفالوس »، وقد شاء له الحظّ أن يكون واحداً من الأحصنة المشهورة في التاريخ .

وبينما كان الإسكندر يرقُب هذا الحصان ، تحرَّكت نفسه ، وتوتّرت عضلاتُه ..! ان « بوسيفالوس » يصهُل صهيلاً حادًا ، ويَثِبُ كحيوانٍ متوحّش . وكلّما تقدم منه أحدٌ يريد امتطاءَ ظهره ، أو سمع صوتاً حوله ، نَفَرَ بِعنف ، حتى خافت الفرسان منه .

غضب فيليب ، حين رأى « بوسيفالوس » متمرّداً ، لا يَقْوَى أحد على ترويضه ، وصرخ باشمئزاز :

ـ أعيدوا الحصان اللعين إلى السوق !

فوثب الإسكندرُ من على السياج ، وهو يصيح :

ـ لا .. لا يا أبي !

ثم اندفع نحو أبيه ، والحصان بين يديه ، وهو يُدَمْدم بنفسه :

ـ ما أجملَ هذا الحصان الذي سيُعيدونه إلى السوق !

فنظر فيليب إلى ولده الإسكندر بفتـــور ، ثم رفع نظره إلى الحصان المتوحش العنيف وسأل :

ـ من يمكنه أن يمتطي هذا الحصان ؟

فاجاب الإسكندر :

ـ أنا أستطيع .

وهنا صاح فيليب بولده الّذي أراد أن يعامله كرُجل :

ـ وإذا لم تستطع فماذا تقدّم ؟

ـ أقدّم ثمن الحصان كلّه .

ولم يكن ثمن الحصان بقليل .. لأنه في حالِ عجْز الإسكندر ، يَجِبُ أن يرهن مستقبله كلَّه ليدفع ثمن الحصان . فاجاب فيليب :

ـ إذاً ، عليك ركوب الحصان !

أسرعَ الغلام نحو الحصان المارد ، التي كانت عيناه لا تزالان تقدحان بالشرر والرُّعب ، والتقط اللّجام بخفّةٍ ، ثم أدار وجـــه الحصان نحو الشمس المحرقة ، وتركه قليلاً .

كان رجال الحاشية الملتفُّون حول فيليب يضحكون على رهـان الغلام ، بينما تأهّبَ فيليب الذي حاول أن يكون أباً طيّباً ، مخـافةَ أن يسقُط ولدُه عن الحصان ويؤذي نفسه .

أما الآن ، حين راح يرى هذا المشهد أمامه ، فقد أخذت مخاوفُه تتلاشى ، وتحلّ محلَّها الكبرياء !

راح الإسكندر يتحدّث بهدوءٍ إلى « بوسيفالوس » ويربّت على ظهره بلمساتٍ خفيفة . وبعد دقائق ، أخذ يهدّىء من غيْظ الحصان ، حتى هدأت ثورتُه ، وحنى رأسَه المهيبَ طائعاً . فانتهز الإسكندر هذه اللحظـة وبِـوَثْبَةٍ واحدة .. امتطى ظهر الحصان .

ثَبتَ الإسكندر على ظهر الحصان ، فيما كان وجهه لا يزال ملتفتاً نحو الشمس . وسُرْعان ما مشى ذلك الوحشُ الضَّخم كالكلب الوديـــع ، دون أن يضربه الإسكندر ، الّذي كان متمسّكاً باللّجام ، فجرى بـه جرياً سهلاً . وأخيراً وَخزه ليسرع في جريه .

تجمَّد رجالُ الحاشية في مواقعهم ، وهم يراقبون بدهشةٍ ما كان ، ولا يصدّقون .

وبعد الانتهاء .. شرح الإسكندرُ كيف سيطر على « بوسيفالوس » !

لقد لاحظ أن الحصان ، حين قدَّموه للركوب ، كان ظهرُه نحوَ الشمس ، مما جعله يَجْفِل من ظلّه على الأرض .. وكان كلّما تمايلَ أو تحرّك ازدادت حركة الظلّ بشكلٍ مخيف .. ولذلك أدار الإسكندرُ الحصانَ بحيث لا يقع ظلُّه أمامه ، ثم انتظر أن يهدأ ، ويعود وديعاً أليفاً .

طبع فيليب قُبلةً حارّة على جبين ولده الإسكندر وقال له بإعجاب :

ـ ولدي ! إن مقدونيا لن تكون كافيةً لك .. إنك في حاجةٍ إلى مملكة !

وأحبَّ الإسكندر « بوسيفالوس » سنين عدة ، وأحبّه الجواد أيضاً . وكثيراً ما كان يختار بوسيفالوس الممتازَ ، ليكونَ مطيّته في المعركة . كما أصبح الغلام

الأشقر الشجاعُ الَّذي يشبه الطائر ، فوق حصـــانه الشديد ، رمزاً للنَّصر عند المقدونيّين .

وعلى مرّ الزمن هرِمَ بوسيفالوس ، لكن الإسكندر أبقاه بجانبه ، وظلّ يمتطيه في حفـــلات العَرض ، أمام جنده ، فيشجّعهم مشهدُه ، ويحثّهـــم على خوض المعارك .

وبعد ستَّةَ عشر عاماً على ذلك اليوم المشمس في « بيللا » مات بوسيفالوس ، الحصان الذي كان الإسكندر أولَ رجلٍ امتطاه ، فدفنَه سيّده في جنـــازةٍ فخمة اشتركت فيها الجياد ، وأطلق اسمه على إحدى المدن . ولا تزال آثارُ هذه المدينة باقيـةً حتى اليوم في مقاطعة « كشمير » التي غزاها الإسكندر .

والآن ، هـــل تأمّلتَ كيف استطاعَ الإسكندر الصغير أن يذلّل الجواد الذي عجز عن تـــذليله الأبطال ؟

هل كان ساحراً ؟ هل كان صاحب معجزة ؟

لا .. لم يكن الإسكندر بساحر ، ولا بصـاحب

معجزة ، لكنه صبيٌّ ذكيٌّ أعملَ فِكرَهُ في الأمر ، واستخلص هذا الحلّ . وفاز بالجواد والجائزة .

وهكذا كنْ في المشاكل .. لا تقِف عاجزاً أمامها ! بـــل استخدمْ عقلك وحيلتك واكتشافَك كما صنع الإسكندر الصغير .

وما دُمنا سنتكلم عن الإسكندر ومقدونيا واليونان .. فكيف كانت هذه البلاد في ذلك العهد !؟

٢

هكذا كانت اليونان

في تلك الأيام ... كان شرقُ البحر الأبيض المتوسط مركزَ العالَمِ، وكانت مدينة أثينا أهمَّ المدن اليونانيّة .

ولقد كان العالَمُ اليونانيّ دائرة نَيِّرةً بالثقافة ، أما خارجَ هذه الدائرة في أوروبا فكان الظلام سائداً .

كان إذا تطلّع اليونانيُّ شمالاً يعلم أن هناك مقدونيا ، أمـــا وراءَها فليس سوى البرابرة المتوحّشين الذين يعيشون في منطقة الدانوب . وإذا التفتَ إلى الغرب عرفَ مدينة « قرطاجة » الواقعةَ على الساحل الإفريقيّ ، حيث وصل المستكشفون والتجّار الماهرون الشجعان

حتى مضيقِ جبل طارق ، وكان معروفاً آنذاك باسم « أعمدة هِرَقل » . ومدينةُ روما نفسها لم تكن حتى مولد الإسكندر مدينةً مذكورة . أما إذا أدار وجهه نحو الجنوب ، فعنده بعض المعلومات عن مصر .

وإذا اتّجه نحو الشرق فهو على معرفةٍ بالشرق ، حيث امبراطوريةُ الفُرْس الواسعة ، الخطيرة ، ومن ورائها مملكةُ الهند التي سمِع بها اليونانيون ، رغم أن القليل منهم زارها . ووراء الهند كانت مملكةُ الصين التي بدت أرضاً مجهولة كما سمّاها اليونانيُّون .

ومع هذا ، فإن معظم ممالك العالم المعروفة في ذلك الزمان ، عند اليونانيِّين والمقدونيِّين ، قد غزاها الإسكندر في حياته . إنه لم يصلْ إلى الصين ، ولم يتوجَّه غرباً نحو إيطاليا ، لكنَّه غزا كل شيء ما عدا الصين وإيطاليا .

لقد كان هذا العمل خطيراً جداً ، تحيَّرت فيه عقول الرجال منذ ذلك الزمن . ولم يكن شانُ الإسكندر في ذلك إلا كشان العظماء ، أمثال قيصر ونابليون وخالد

ابن الوليد ، وطارق بن زياد ، وقُتَيْبَة بن مسلم ـ الذين انطلقوا بعقيدتهم ورسالتهم ، ليجمعوا العالَم كلَّه في قبضتهم ، يوحّدونه ، ويحكمونه ، ثم يُنَوِّرونه ثقافياً وروحيّاً .

لقد حاول الإسكندرُ أن يملِكَ العالم كلَّه ، وكاد ينجح . ولهذا السبب ، وعلى الرغم من قِصَرِ حياته ، فإنّ عمله يُعدُّ حَدَثاً من الأحداث الهامة التي تتألق في التاريخ .

وما كانت بلاد اليونان بأرضٍ سهلة ، ولا بحقول مستوية ... وإنّما هي صخور يَصْعُب تسلُّقها ، وأودية ضيّقة ، ملتوية يعسُر عبورها . ولذلك كان الانتقال من مدينةٍ إلى مدينة صعباً . ولكن هذه العوائق كلّها لم تمنع شعباً ذكيّاً كاليونانيّين من التقدُّم .

ومنذ البداية حين خرجوا من البربرية ، أظهروا علاماتٍ تدلُّ على طموحهم الكبير ، وذكائهم ، وموهبتهم ... لقد كانوا جنوداً أشدّاء في البرِّ والبحر ، وتجاراً أذكياء يعرفون كيف يربحون . عاشوا عيشة

بسيطة ، وجعلوا أساس حياتهم الخبزَ وزيت الزيتون والنبيذ .

ولم يعطِ شعبٌ في التاريخ ما أعطاه للبشريَّة هذا الشعبُ اليوناني في ميدان العلوم ، والأدب ، والشعر ، والفلسفة .

لقد كانوا أوّلَ شعبٍ ينشىء النظام السياسي الذي نسمّيه اليومَ « النظام الديمقراطي » أو حكمِ الشعب . لقد احترموا المواطنَ الصالح ، واحتقروا رجال السياسة الذين يخدعون الشعب بأكاذيبهم ، وآمنوا بالحقوق الشخصيَّة لكل إنسان ، وقدَّسوا الحرية ، واستعدّوا دائماً للدفاع عنها .

وقد تجلَّى حبُّهم للحرية وتقديسُهم لها ، في حربهم ضِدَّ جيوش الفُرس التي أقبلتْ من بعيد ، بطريق البرّ ، وعلى سطح البحر ، لِتُحاربَ اليونان ، وتفتح بلادَهم ، وتستعمرها ، وتغتصبَ مساكنهم وحقولهم ...

ماذا يصنع اليونانيُّون ، وهم لا يملِكون الجيشَ الكبير الذي يقاومُ جيوشَ الفرس الجرَّارة ؟ ماذا

يصنعون وقد أقبل الفُرس عليهم يملأون البرّ جُنداً ، والبحر سُفُناً ، ونفوسهم تغلي بالحقد والكراهية ... ماذا يصنعون ؟ هل يَجْبُنون ؟ هل يستسلمون ؟ هل يتركون ديارَهم نَهباً للفاتحين الغزاة ؟ هل يُقدّمون نساءَهم وأطفالهم أسرى وسبايا ؟ لماذا الحياةُ إذا أصبحتْ بدون أملٍ ، ولا غاية ولا عزّة ؟

إذنْ ، يا أبناء اليونان .. إذا أردتم الحياةَ مع الذلّ فاستَسْلموا ! وان تريدوا الحياة مع العزّ والشرف فقاوِموا !

بهذه الصرخة مشى اليونانيون إلى لقاء أعدائهم ، قلْباً واحداً ويداً واحدة ، وهدفاً واحداً .. قد تناسَوْا خلافاتهم ، وعداواتِهم ، ليدافعوا عن أوطانهم الغالية ، ويحموا حرّيتهم العزيزة .

لقد كانوا أمامَ أعدائهم كالنّهر أمام البحر ... ولكن هذا النهر كان يندفع ويتقدّم ... دون أن يستسلم . وأخيراً هزموا الغزاةَ الفرسَ : بعد أن دفعوا ثمن النصر غالياً . ولكنّ من يطلبِ الحرّيّة لا يستكثِر الثمن .

تلك هي المأساة الأولى !

وهنالك المأساة الثانية .. ولم تأتِ ، هذه المرّة ، من الخارج ، بل جاءت من داخل اليونان : مدينتان كبيرتان وقعت العداوة بينهما ، واشتعلتْ نيران الحرب فيهما ... هما أثينا مدينةُ العلم ، وإسبارطة مدينة القوة.

كم من دماءٍ غزيرةٍ قد سالت ! وكم من أرواحٍ بريئة قد هلكت !

لقد طعنتْ هذه المأساةُ اليونان في القلب ، لأنها فرّقت الصفوف ، ومزّقت وحدة الشعب ، وجعلَت بعضه عدوّاً للبعض الآخر . وتركت البلادَ بعد ذلك لُقمة سهلة للغزاة .

في هذه الأثناء ، انحدر « المقدونيُّون » كاليونانيّين ، من البرابرة المتوحشين ، في البلاد الشمالية المجهولة ... وهم شعب بسيط ، شجاع ، مِقدام ، قاسٍ ، لم يعطوا العالم فنانين ، أو أدباء ، أو علماء ، أو فلاسفة ــ كما أعطاه أبناء عمّهم اليونانيون .

لكنهم أعطَوا رُجلَين عظيمين ، هما : الملك فيليب وولده الإسكندر .

فاعلم يا بُنَيّ ! أن الأمة التي يتفرّق أبناؤها – لأية أسباب كانت : حزبيّةً ، أو طائفيةً ، أو مذهبية – ويتقاتلون فيما بينهم من أجل هذه الأسباب التافهة ، لهي أمةٌ حكمتْ على نفسها بالموت والفَناء .

٣

والآن ... من هو الاسكندر

كما يكون الآباء ... يكون الأبناء :

كان والد الإسكندر « فيليب » ، حادَّ الطبع ، شَرِسَ النفس ، وأُمه « أُوليمبياس » امرأةً عنيفة ، عاطفية . وما كان للولد الذي أَنجَباه أن يكون إلا حادّ المزاج مثلهما !

وقد استطاع فيليب أن يصير ملكاً على مقدونيا بفضل شجاعته وإقدامه . وكان له أمٌّ لا تقلُّ عنه طموحاً وإقداماً ، ويكفيها فخراً أنها تعلّمت القراءةَ

والكتابة ، وهي طاعنةٌ في السنّ ، مما جعلهـــا موضع افتخارٍ عند ابنها . ولم يكن ـ في مقدونيا ـ إلا القليل بين الأُسَر المعروفة ، مَن يعرف القراءة والكتابة في تلك الأيام . لأن الناس كانوا أكثرَ اهتماماً بمعـــارك الفُؤوس ، وسَلْخ جلد عنزة !

أصبح فيليب ملكاً على مقدونيـا عام ٣٥٨ قبل الميلاد ، وحين كان في الثالثة والعشرين من عمره كان ملكاً يتحلّى بثقافةٍ واسعة ، وواحداً من كبار ملوك التاريخ ، كما أنه كان أباً عظيماً استطاع أن يَلِد ولداً عظيماً .

وعلى الرغم من أن فيليب وولدَه الإسكندر قـد تشابها في المُلك والسّلطان ، فقد اختلفا في الهيئة : كان فيليب أجعدَ الشعر ، ذا لحيةٍ سوداء ، وأنفٍ يوناني الشكل باستقامة ، يبدو معقوفاً على أثر كسرٍ فيه . وهو أعورُ العين ، أعرجُ الرّجل ، نتيجة إصابته بجرح فيها ، وإحدى يديه مشلولة ... ومع هذا ، فلا يراهُ الناظر إلا لابساً درعه ، أو مرتدياً رداءه الوطنيّ الخشن .

وحين كبر الإسكندر كان يبدي عطفَه على جراح أبيه ، وذات يوم صرخ فيليب من فَرْط الألم ، فاجابه ولده :

ـ لا تقلقْ يا ولدي ! فكلّ خطوةٍ خطوتَها ، وأنت تتالم ، تذكّرُنا بانتصاراتك !

وبعد أن اعتلى فيليبُ العرشَ ركّز طموحه في هدفين : الأول ، هو توحيد اليونان ، والثـــاني غزوُ العالم .

وقد حقَّق الهدفَ الأول في حياته ، وترك تحقيق الهدف الثاني لابنه الإسكندر بعد وفاته .

حين كان فيليبُ في الخامسة والعشرين من عُمره انطلقَ في رحلةٍ إلى جزيرة «ساموتراس»، حيث التقى بامرأة شابة، تدعى «أولمبياس». وكانت هذه يتيمةَ الأبوَين، تنحدر من أصل ملكي ، ذات شعرٍ أسود ناعم ، وعينين متوهّجتين ، وذات شخصية جذّابـة معقّـدة .. فوقع فيليب في حبّـها في تلك اللحظة .

وأثناء حضوره مهرجانـاً دينياً ، حافلاً بطُقوس

الوثنيين وشعائرهم، لاحظ فيليب أن هذه الفتاةَ مفتونةٌ بتلك الطقوس الهمجية، فهي تعتقد بوسطاءِ الوحي، والنبوءات، والبشائر، والعرّافات. وتقدَّم منها خاطباً، فوافقت، وعاد الزوجان معاً إلى مقدونيا، حيثُ أصبحت هذه المرأة ملكة ... ثم أنجبت بعد قليل ولدَها الإسكندر سنة ٣٥٦ قبل الميلاد.

ومعظم الرجال العظماء تكون أُمهاتُهم عظيماتٍ أيضاً، لأن الأمّ العظيمة، بما تبذله من رعايةٍ وعناية، تخلق الرجلَ العظيم!

ثار فيليب على زوجته حين أصرَّت على وضْع أفاعيها في غرفة نومها أثناءَ الليل. وأيُّ زوج يرضى بأن يرى الأفاعي تزحف حول سريره؟ لكن زوجته أبلغته أن أفـــاعيها مدرَّبة، لا تؤذي، وهي - في نظرها - مقدَّسة!

هذا الشذوذُ الغريب أثّر في حياتها وتصرُّفاتها؛ وجعلها كثيرةَ التعلُّق بولدهـا، شديدةَ الحب له؛ لا يمنعها حبّه أن ترتكبَ أي شيء من أجله!

وفي الليلة التي وُلد فيها الإسكندر كان والدُه فيليب يحارب في اليونان ، وقد جاءته ثلاثُ رسائل :

الأولى تحمل خبر مولد الإسكندر .

والثانية تحمل نبأ انتصار جنوده المقدونيّين .

والثالثة تحمل خبر فوزِ أحد جياده بالجائزة الأولى في الألعاب الأولمبية .

وهكذا اعتقد فيليبُ أن هذه الأنباء السعيدة ، في ليلةٍ واحدة ، تبشّره بحظٍّ عظيم !

الاسكندر يكبر :

شعر الإسكندر ، منذ حداثته ، بأنه وليّ العهد ، وأنّه سَيرثُ عرش مقدونية ، في يوم من الأيام .

وكانت نشأتُه تميـــل مرةً إلى الدّلال والنعومة ، ومرّةً إلى الشدّة والقسوة . ولكن ، منذ البداية ظهرت على وجهه علائمُ الطموح . وقد جاءه وهو في الثانية عشرة من عمره – رسول يبشّره بانتصـــار والده في معركة كبيرة ، فصرخ الإسكندر :



اولمبياس والدة الاسكندر

ـ إذا انتصر والدي في المعارك القادمة فلن يترك لي بلداً أغزوه !

وبالرغم من أن الإسكندر كان مبرّزاً في الرياضة وفنونهـــا فإنه كان يسأمها كثيراً ... كره الملاكمة والمصارعة المفضّلتين في ذلك العصر . وكان مغرماً بالصّيد ، سريعَ العدْو ، سبّاقاً . ولما اقترحَ عليه أحدُ رجال الحاشية أن يخوض سباقاتِ الألعاب الأولمبيّة القادمة ، بعد أن شاهد عدْوَه ، أجابه الإسكندر بكبرياء :

ـ لن أُسابق أحداً إلا الملوك !

ثم كان ما كان من أمره مع الجواد «بوسيفالوس» .

ثم أخذت شخصيّة الإسكندر الناشئة تظهر في بعض المزايا والصفات التي أدّت إلى شُهرته كغلام شجاع ، ذكيٍّ وصاحب ثقة بنفسه .

وأراد فيليب أن ينال الإسكندرُ نصيباً حسناً من الثقافة فأقنعَ «أرسطو» فيلسوفَ اليونان وعالِمها الجليل ، أن يأتي إلى «بيللا» ويصبح أُستاذاً لولده .

وجـاء أرسطو ، حامـلاً عِلمه وفلسفتَه ، وعلَّـم الإسكندرَ علوم الطب والسياسة والحقوق بالإضافة إلى علوم العقل والحكمة ، وَفتحَ أمام تلميذه الصغير عالَمَ الكتب الرَّحيب .

أما الكتابُ الذي عَشِقَه الإسكندر ، فهو « إلياذة هوميروس » أو كتاب الأبطال . وقد حفظ الكتابَ كلَّه ، وسيطرت الإلياذةُ على خيـاله وعقله بقصَصِها القديمة الغريبة،حولَ أبطال اليونان في حرب «طروادة»، وظلَّ ـ طول حياته وفي كلِّ غزواته ـ يَضَعُ شيئين تحت وسادته حين ينام : خِنجراً لحمـايته ، والإلياذة لثقافته وتسليته .

سُرَّ فيليب لما بذله أرِسطو من جهودٍ في تعلـيم الإسكندر ، وصادف مرَّةً أن مرَّ فيليب ، في إحـدى معاركه ، بالمدينة التي وُلد فيها أرسطو ، واستولى عليها ودَّمرها ، ولكنّه سرعان ما نـدم على فِعلته ، فاعتذر من أرسطو ، وأمر ـ لـكي يكفِّر عن ذنْبه ـ بإعادة بناء تلك المدينة ، وأذِنَ لأهلهـا المشرَّدين أن يعودوا إليهـا .

وبعد سنواتٍ عدّة كان الإسكندر يُردّد :

« إن والدي هو الذي وهبني الحياة ، أما أرسطو فقد علّمني كيف أعيش » !

وبالإضافة إلى هذه المواهب كلّها ، أبدى الإسكندرُ مَيلاً قوياً إلى الفنون ، فأحبَّ الموسيقى ، وتعلّم العزف . ولكن هذا الميلَ لم يَرْضَ عنه أبوه ، مخافةَ أن ينهمك ابنُه في محبّة الفن ، وبالتالي يفقد الاهتمامَ بالحرب والغزو . فأرسل ابنَه ، برفقة جنده ، ليتدرَّب على الحياة العسكرية القاسية .

ومما يُثير الإعجاب أن معظم الملوك السابقين لم يَحْرَصُوا على مستقبل أولادهم بعد موتهم ، واتّجهوا إلى إهمال تعليمهم . لكن فيليب يختلف عنهم ، إذ أصرَّ على تدريب ولدِه الإسكندر على أُصول الحكم ، وهيَّأه لكي يتحمَّل الأعباءَ الكبيرة ، حين يصبح ملكاً على امبراطورية مقدونيا الآخذة في الاتّساع .

وحين بلغَ الإسكندرُ السابعة عشرة من عمره ، كان فيليب في غزوةٍ خارج البلاد ، فتمرّدت إحدى

القبـائل في الشمال ، مُستَخِفّة بالإسكندر . وعـلى الفور .. هبّ الإسكندر نحو المتمرّدين ، وقضى عليهم في المعركة .

ولقد سُرَّ فيليب بعمل ولده ، ولكنه لبث يحارب في اليونان حتى كانت معركة « كورونه » التي وصل فيها فيليب إلى أوجِ قوّته .

أشرفَ الإسكندر على الثامنة عشرة ، وبذلك كان على عَتبةِ الرُّجولة . وأراد فيليب أن يمتحن ولدَه ، فمنحه قيادةَ الفرسان . وخاض الإسكندر هذا الامتحان بنجاح باهر ، حيث كان يحارب أعداءه كالمجنون . وكانت شجاعته مفتاح انتصاره .

وفي أواخر أيام فيليب ، سئم ذلك الرجلُ الحرب ، وأراد أن يُنشىء جسراً من الصداقة بينه وبين أعدائه اليونانيّين بدلاً من الحقد ، فأرسل الإسكندرَ إلى أثينا رسولاً للتّفاهم . وعاد الإسكندرُ ناجحاً ، ومعه رُفات الأمواتِ اليونانيّين الذين حاربوا ببسالة ، تكريماً لهم .

ولكن المرضَ بـدأ يُثقِلُ على فيليب ، والأحداثُ المتتابعة لا تبشّر بالاطمئنان . وقد ضَجِرَ من كبرياء زوجته ، وكَرِهِ إيمانها بالعرّافين ، وحبّها للأفاعي ، فزيّن له مستشاروه أن يتزوج امرأة ثانية ، مقدونيّة الأصل ، تلِدُ له ولداً مقدونيّ الأصل ، يكون لائقـاً بوراثة العرش من بعده .

ولانَ فيليب لذلك المطلَبِ ، وفاوض عمّ العروس الجديدة في ذلك . وفي حفلة الزواج نهض الإسكندر ثائراً وصرخ في وجه عمّها :

ـ وماذا عنّي أيها الخائن ؟ ألستُ الوريثَ الشرعيّ ؟

ووقف فيليبُ الذي ضيّعته الخمرةُ ، مترنّحاً ، يتلمّس مقبِضَ سيفهِ : لكنّه سقط على الأرض ، والجالسون لا يعلمون من يريد فيليب أن يقتُلَه : ولدَه الإسكندرَ ، أم عمّ العروس الوقح .

لكن الإسكندر تقدّم نحو أبيه ، حيثُ وقع مترنّحاً ، ثم قال :

ـ أيها المقدونيّون ! هذا الرجلُ والدي يقولُ لكم

إنه سوف يقودُكم من بلدٍ إلى بلد في آسيا...لكنّه الآن **لا** يستطيعُ أن ينهض على رِجليه ، وينتقلَ من طاولة إلى طاولة !

الاسكندر ملكا :

بعد ذلك المشهد الفظيع الذي أهان فيه الاسكندرُ والده فيليب ، أخذ رجال الحاشية يتساءلون :

ـ ماذا عسى يصنع فيليب ، ذو الطبْع المخيف ، بعد أن يستعيدَ هدوءه ؟ كيف يكون انتقامه منه ؟ كيف يعاقب ولدَه على هذه الجرأة ؟

لقد كان فيليب عاقلاً ، فهو لم يلجأ إلى أساليب العُنف ، بلْ لعلَّه ندِمَ على زواجه .

لكن الإسكندر أجبر أمه «أولمبياس» على أن تهجر أباه ، وترافقَه هو إلى مكان بعيد .

على أن الإسكندر ظلَّ ـ برغم بُعده ـ يحلُم بالمُلك والسّيطرة . وبعد أيام مُتطاوِلة دعا فيليبُ ابنَه الاسكندرَ ليعود إليه ، لا مدفوعاً بعاطفته الأبَويَّة ،

وإنما أراد أن يكونَ الاسكندرُ قريباً من العرش ، قريباً من العاصمة « بيللا » التي تؤلّفُ رمزَ الوحدة .

ووافق الإسكندرُ بعد تردّدٍ ، على العودة إلى البلاط الملكي ، فاستقبلهُ أبوه بترحاب ، وحاول أن يعيد الثقة إلى ولده الذي حَقَدَ عليه . لكن الإسكندر ظلّ فاقد العاطفة ، نزّاعاً إلى الشكّ والتحفّظ . وهكذا اجتمع الاثنان : الأب وولدُه ، وهما متباعدان .

كان الإسكندر في التاسعةَ عشرةَ من عمره ، حين علم أن أحدَ ملوك آسيا عَرَضَ ابنته لتكون زوجةً لأخيه الصغير ـ وكان معتوهاً ـ وهو يطمع من وراء ذلك ، أن يسلخَ عن الإسكندر ولايةَ العهد ، بدون إرادة فيليب .

لكن الإسكندر لجا إلى الحيلة ، واستمال والد العروس المقْتَرَحة ، ليُبدّل فكره ، ويقدّم ابنته زوجةً له لا لأخيه .

عندئذٍ غضب فيليب على ولده ، وحزن حزناً شديداً لتمكّن الشكّ من نفس ولده ، وحاول أن يُعيد

الطمأنينة إلى نفسه عَبَثاً . وحين يئس من أمره هدَّده بسحب ولاية العهد منه إذا أقدم على الزواج باميرة بربريَّة من آسيا ، فتخلّى الإسكندر عن فكرة الزواج ، مخافةَ أن يحرمه أبوه من العرش .

وفي ذلك الحين وَلَدتْ زوجة فيليب الثانية غلاماً ، فازداد نفوذُها ونفوذ عمّها في الدولة :

وذات يوم ٍ اعتدى عمُّها على أحد رجال حاشية فيليب المسمَّى « بوزانياس » ، فشكا هذا أمرَه إلى الملك . وأهمل الملك شكواه .. فاضمر له الرجل الشر . وبعد أيام اغتال « بوزانياس » الملكَ فيليب ، ولقي مصرَعه على أيدي الحرَّاس .

وكان طبيعيّاً أن يعتلي الإسكندرُ العرش ودماء أبيه لا تزال نديَّةً ..

وهكذا أصبح الإسكندر ملكاً على مقدونيا وعمره عشرون عاماً .

ولم يتوقع أحد أن يصبح الإسكندر ملكاً على العالم كله في ذلك العصر .

٤

عهد الاسكندر

حين بلغ الإسكندر العشرين عاماً نَضِجَت شخصيَّتُه التي كانت تمـيِّزه عن الناس ، وقد كان كريماً ، حنوناً ، مخلصاً ، أحبَّ أصدقاءه ، وخدَمَ الآخرين .

وكان يتمتَّع بصفةٍ بارزة يملُكها أعاظمُ الرجال ، وهي السُّرعـة ... إذ كان يتخـذ قراراتِـه بسرعـة ، وينفِّذها بسرعة !

ولكنه ـ إلى ذلك ـ كان مفتوناً بنفسه ؟ ولِمَ لا ؟ وقد عرف مكانته ومنزلته حَقَّ المعرفة !

أحبَّ أن يُطلق اسمه على الكثير من المدن التي

افتتحها ، أو أنشاهـــا .. كما أراد أن تكون صورتُه جميلة . فكان يحلق ذقنه بيده ، حتى انتقلت هذه العادةُ إلى رجال البلاط . وكان يُعنى بصحتّه ، ويتدرّب على فنون الرياضة بانتظام ، ويأكل ويشرب باعتدال .

وقد قال مرةً لأحد أصدقائه :

– مسيرة ليلةٍ هي فطوري ، وفطورٌ خفيف هو غدائي !.

ولم يكن يهتمُّ بالنّساء ، وأحبَّ النوم ، وكثيراً مـا قضى في النوم نهاراً كاملاً ، بالرغم من الأعمال الكثيرة التي كانت تنتظره . ولم يهتمّ بالغنى والملذّات ، بل كان اهتمامه منصرفاً إلى الحرب والمجد .

ولقد انتخبَ أصدقاءه بحِذْق ، ثم أحبَّهم وأحبُّوه، وبذلوا أرواحهم رخيصةً على قدَميه !

وربما تبدو لنا شخصيَّة الإسكندر شخصيَّةً محيِّرة ، لأن نفسيَّته كانت كنفسيَّة أكثر الرجال اللامعين ، أيْ غير مستقرّة ، ولا ثابتة .. لقد أراد أن يعيش حياتَيْن معاً : الأولى تمثّله رجلاً سابحاً في دُنيا الخيال ، والثانية

تمثّله رجلاً واقعيّاً ، يتمسك بالأعمال . وقد جمع بين هاتين الحياتين معاً ، في أيام حربه وسِلْمه .

كان أمام الاسكندر ، بعد اعتلائه العرش ، الكثيرُ من الأعمال . وكان من حُسن حظّه أن كل شيء قد هدأ ، وأن جيشَ أبيه المدرّب أطاعه ، وخضع له .

ولكن المشكلةَ الكبرى التي واجهتْه هي أنه وجد خزائن الدولة فارغة . وإلى هذه يشير بقوله :

ـ « تحسدونني على ما خلَّف لي والدي ... وماذا خلَّف لي سوى الديون » ؟

وحقّاً ، ان خزائن المال كانت خالية ، لأن الحروب الكثيرة التي خاضَها فيليب ، في سبيل إخضاع اليونان وتوحيدها ، قد استهلكت المالَ كلَّه .

وكان أوّل عمل للإسكندر أنه انتقم لوالده من الّذين تآمروا على اغتياله .. ثم تحرّك لِملاقاة اليونانيّين المتمرّدين الذين سَرّهم موتُ فيليب ، وهم لا يعرفون

عن الاسكندر إلا قليلاً ، بل لا يجدون فيه إلا شابّاً جاهلاً ، طريَّ العُود ، قليلَ التجرِبة .

في ذلك الحِين ، أخذتْ بوادرُ التمرُّد تظهر في اليونان ، بل حتى مقدونيةُ نفسها اضطربتْ بعد موت فيليب .

ماذا عسى أن يصنع الاسكندر ليُعيد الاستقرار إلى مملكته الموروثة ؟

ظن الجميعُ أن الاسكندر سيتّجه سريعاً إلى اليونان ، ويُخْضعها .. لكنّه خدعَ الجميع ، إذ انطلق في الطريق المعاكس . كان يُدرك ، بفضلِ غريزته وتدريبه ، حقيقة عسكريّة هامّة هي : أن القائدَ الماهرَ هو الذي يحمي خطوطَ تموينه ، ومواصلاته الخلفيّة ، قبل أن يُقدمَ على أي شيء ... إذ لا أمانَ في الإقدام بدون الالتفات إلى الوراء .

وقد كانت مسيرتُه معجزةً .. فهي في أرض وعرة ، مجهولة ، مقفِرة ، اشتهرَ رجالُها بالشجاعة ، وليس فيها طرقٌ واضحة الأثر .

ولكن الإسكندر ... على الرغم من هذا كلّه استطاع أن يقود جيشه ، في فترةٍ قصيرة ، حتى نهر الدانوب البعيد ، حيثُ أسّس مركزاً للقيادة ، في مكان يُدعى اليومَ «بوخارست» عاصمة دولة رومانيا ، ثم قضى على رجال القبائل الذين هدّدوا بالثورة عليه .

ومنذ ذلك التاريخ ، لم يَلْقَ الإسكندر أيّة متاعب أو مشاكل على تلك الأرض . وبذلك أمِنَتْ حدود دولته .

عاد الإسكندر منتصراً ... وفي قلبه مرارةٌ من اليونان... وتذكّر خطيب اليونان المشهور «ديموستينوس» الذين طالما هاجم أباه فيليب بخطَبه القاسية اللاذعة . وقال الإسكندر كلمته المشهورة :

« سيرى ديموستينوس أنني كنتُ طفلاً منذ أسبوع، حين قاتلتُ أولئك البرابرة ، وأنني أمسيتُ غلاماً بالأمس ، حين عبرتُ السهول والأودية إلى اليونان ، أما الآن فانا رجل أمام أسوارِ أثينا » .

لكنّ همّ الإسكندر الوحيد الذي ظلَّ يُقلقه ،

هو أن يهزم الفرسَ أعداءَ اليونان. وحين أبدى رغبته هذه شجّعه البعض على عزيمته، وعارضه البعض الآخر، لنفورهم من الحرب وتكاليفها... وكانوا يفضّلون أن تكون علاقتهم مع الفُرس حسنة، وتجارتهم معهم تجارةً مربحة.

وقبل أن يبدأ الإسكندر بالإقدام على أي شيء... اندلعت عليه ثورةٌ في مدينة «طِيبه»، وهي مدينة مقدّسة عند اليونان. فعرض على أهلها الصلحَ والعفو إذا استسلموا.

لكنهم أصرّوا على التحدّي والمقاومة.. فزحف الإسكندر بجُنده نحوها، وحاصرها، ودكَّ أسوارها، وأحرق منازلها كلها..

وصاحت امرأةٌ في وجه الإسكندر وهو يرقُب أحد البيوت يحترق:

– ماذا تفعل يا إسكندر؟ هل تعرف أيَّ منزل هنا؟

فسألها الاسكندر:

ـ منزل مَن يكون هذا المنزل؟ إنه منزل أحد أعدائي على كل حال!

فقالت المرأة:

ـ لا.. لا. إنه منزل شاعر اليونان «بِندار».

توقّف الاسكندر حائراً، وقال:

ـ منزلُ الشاعر «بندار» الذي حفظتُ شِعره، وقدّستُ نبوغه! لا.. لا يمكن أن يتهدّم! يا رجال، أتركوا هذا المنزل إكراماً للشاعر والشعر! إن منازل الشعراء لهيَ أكرمُ المنازل عندي!

ولم يُبقِ الإسكندر في المدينة إلا ذلك المنزل وحده، شاهداً على تكريمه للشعراء.

وكان بعد ذلك كلّما التقى برجلٍ من سكّان «طِيبه» أبدى عطفاً عليه، وأحسن إليه.. وقال له:

«لو كنتُ أعرف ان هذه المدينة مدينة الشاعر «بندار» لعفوتُ عنها»!

ومع ذلك كان رحيماً مع أعدائه، يقدّر الشجاعة

أين كانت . ومن ذلك أنّه ، بعد موقعة طِيبه ' حمل إليه جندُه امرأةً أسيرة قد دافعت عن منزلها دفاع الأبطال . وحين هاجمها المقدونيّون سألها أحدهم :

ــ أين الذهب ؟

فأجابته :

ــ إنه هنا ، في أعماق هذه البئر !

وحين تدلّى لينظرَ في قاع البئر ، دفعت به المرأة إلى داخلها ، ثم ألقت عليه صخرةً وقتلته .

وجيء بتلك المرأة إلى الإسكندر ، فسألها :

ــ وأنتِ ، ما شأنكِ ؟

فقالت بلهجة حازمة :

ــ لقد قتلتُ أحدَ جُندك .

فقال الإسكندر :

ــ ولماذا فعلتِ ذلك ؟

فأجابته :

ـ لقد أراد أن يعتدي عليّ ، فدافعتُ عن نفسي .

فهزّ الإسكندر رأسه ، وقال :

ـ امرأةٌ تريد أن تقاتلَ الرجال !

فقالت له:

ـ وماذا يمنع النساءَ أن يقاتلن الرجال ... هل في شرعك ما يمنع المرأةَ أن تدافع عن وطنها ، وعن منزلها؟

فسكت الإسكندر أمام شجاعة هذه المرأة .. ثم قال:

ـ خلُّوا عنها ! إنها جديرة بالثناء والاحترام ... لو أن كلَّ امرأة تُبدي مثلَ ما أبدت هذه المرأة لما استطاعت أقدامُنا أن تدوس هذه الأرض !

وذات يوم كان الإسكندر يمشي ، يريد زيارة المعبد الكبير ، فإذا هو بشيخٍ عجوز ، ذي لحيةٍ كثّة ، وشَعر ملبّدٍ ، وجسدٍ هزيل ، والشمسُ اللاّذعةُ تكوي رأسه، وبيده مصباح مضيء .

وعجب الإسكندر من هذا الرجل : ووقفَ عنده يتأمّل في حاله ، ثم سأله :

ـ من أنتَ أيها الشيخ ؟

فاجابه الرجل :

ـ أنا كما تراني !

فقال الإسكندر :

ـ ولكن ، ماذا تصنع ؟ هل أضعتَ شيئاً ؟

فقال الرجل :

ـ أجلْ ، لقد أضعت شيئاً ثميناً ، وأنا أفتّش عنه؟

فقال الإسكندر :

ـ وما هو هذا الشيء ؟ أنبئني به أساعدك في البحث عنه !

فقال الرجل :

ـ إن الشيء الذي أضعته لا يمكن لأحدٍ أن يلقاه !

فقال الإسكندر :

ـ ولكن قل لي ! أنا الأسكندر الذي لا يُعجزه شيء .

فتضاحك الرجل وقال :

ـ أنت الإسكندر ؟ ما أصغرَكَ في ناظريَّ !

وغضب الاسكندر وهمّ بإخراج سيفه من غمده ، وقال :

ـ ألا يعجبُك الإسكندر ؟

فأجاب الرجل :

ـ إنني كما تراني .. أُفتّش عن الحقيقة .. هل باستطاعتك أن تجدها معي ؟

وقف الاسكندر حائراً ، وعلم أنه أمام رجل عظيم .. فسأله :

ـ هل لك رغبة فأحققها لك ؟

فكان جواب الرجل :

ـ نعم . إن رغبتي الوحيدة أن تَميلَ عن الشمس ؛ لأن ظلّك يحجبُها عنّي .

وأخذت الدهشةُ رجال الاسكندر من هذه الُجرأة الوقحة ، لكن الاسكندر ابتسم وقال :

ـ إضحكوا إذا أردتم ! أمـا أنا ، فلو لم أكن الاسكندرَ لاخترتُ أن أكون هذا الرجل !

ولم يكن هذا الرجل إلا « ديوجينوس » الحكيم !

ودخل الاسكندر المعبد الذي اشتهر بأنه معبد النُبوءات والعرّافين ، كأنه كان يريد أن يستطلع نجمَه .. ولكن كاهنة المعبد أَبتْ أن تُخبرَه بأيّ شيء ، لأنّ العلاماتِ المقدّسةَ كانت غيرَ واضحة في ذلك اليوم .

فغضبَ الاسكندر ، وجذبها نحو محراب المعبد وأمرها أن تباشر العمل : فقالت له :

– إن العلاماتِ تدلُّ على أنكَ ستكون الرجلَ الذي لا يُقهر .

أجل ... سيصبح الاسكندر ذلك الرجلَ الذي لا يُقهر .

٥

بلاد الفرس البعيدة

تُعْرف بلادُ الفُرس اليــومَ بآسم إيران . وهي في الوقت الحاضر أصغرُ مساحةً مما كانتْ عليه في أيام الإسكندر .

وبلاد إيران تُعدّ من المناطق الهامّة الآن ، بسبب تدفّق آبار النفط فيها . وهنالك قصةٌ تروي أن بعض رجال الاسكندر اكتشفوا مادة النفط المحرِقة ، أثناء تجوُّلهم في بلاد الفُرس . وقد بلّل واحدٌ منهم جَسدَه بذلك السائل ، ثم أشعل النار في ثيابه ، لِيُثْبِتَ أن

هذه المادّةَ السائلة المجهولة قابلةٌ للاحتراق ، فإذا به يحترقُ ويشرف على الموت ، لولا أنّ رفاقَه أنقذوه .

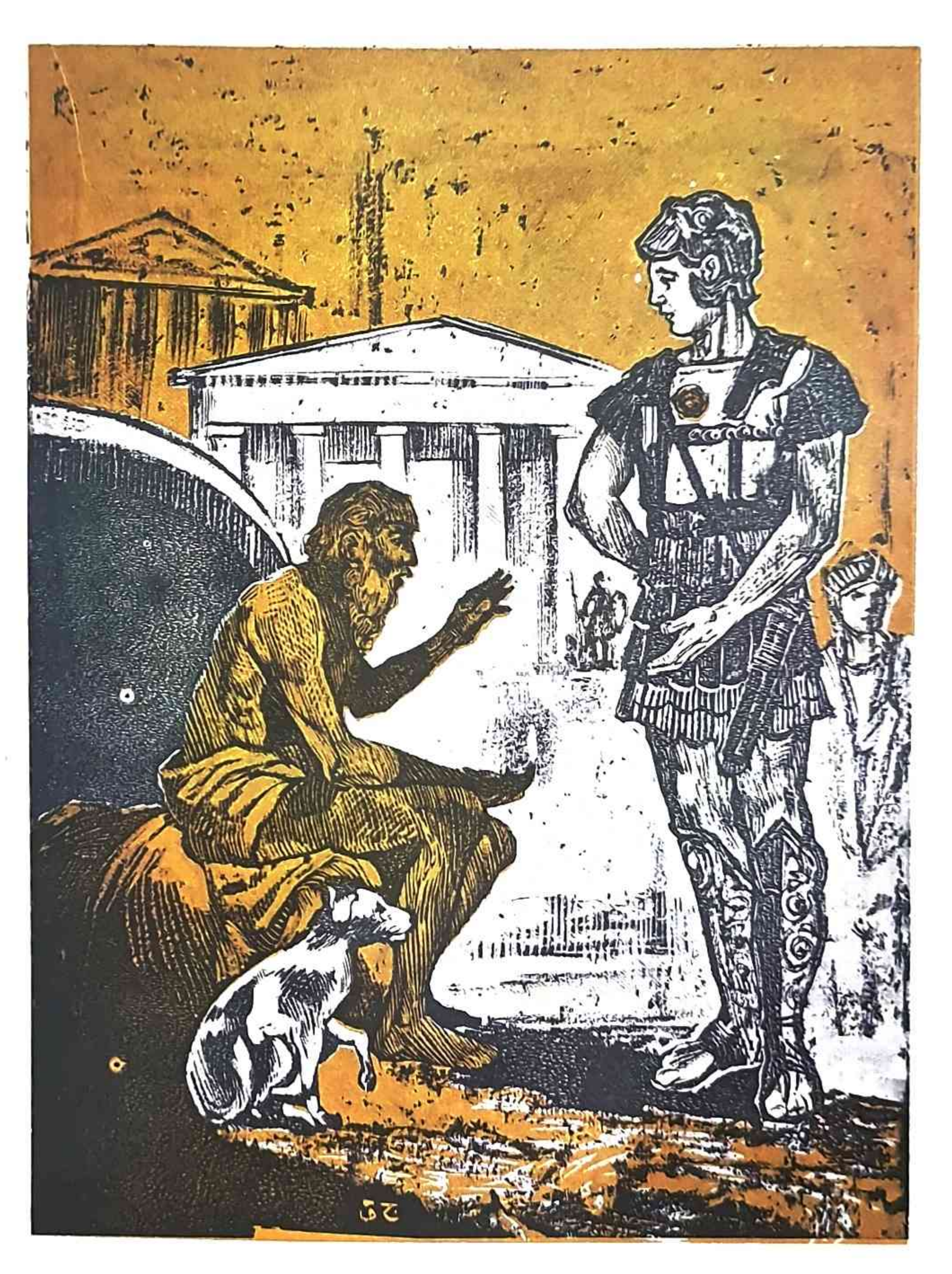
هكذا تمَّ اكتشافُ النفط في ذلك العصر ، لكنّ عصوراً كثيرة مرّت قبل أن يستغلَّه الانسان في العصر الحديث . فمن كان هؤلاء الفُرس ؟

انحدر الفُرس من الجبالِ والغابات والسُّهوب الواسعة الواقعة في الشمال ، وكانوا شعباً بدوِيّاً في البدء ، ثم صاروا رُعاة ، ثم أَصبحوا غُزاة !

وعلى مرِّ الزمن استقرّوا وأنشأوا عدّة مُدنٍ لسُكناهم في مناطق مختلفة .

وكان أولُ ملوكهم « قورش » العظيم الذي تولّى المُلك سنة ٥٥٠ قبل الميلاد ، وهو الذي أسّس الإمبراطوريّة الفارسيَّة . وقد حاول أن يُنشىء دولةً واحدة من مزيج من الشعوب ، حتى امتدَّت مملكته إلى المستعمرات اليونانيَّة ، بل حتى أبواب الهند .

ثم جاء « دارا » الأوّل الذي امتدّ سلطانُه إلى



إنني كما تراني أفتش عن الحقيقة ..

أوروبا ، حتى شبَّهوا امبراطوريته بالفِيل أمام مملكةِ فيليب الصغيرة الشبيهة بالفار . لكن اليونانيِّين استطاعوا أن يقهروا « دارا » في معركة « مراثون » .

وبعد « دارا » تولّى المُلْكَ ولدُه « أحشويرش » الّذي واصلَ حروبه مع اليونان ، وكان نصيبُه الاغتيال .

وكان « دارا » الثالث ملكَ الفرس ، حين انطلق الإسكندرُ نحو آسيا .

المغامرة الأولى :

ضدَّ الفرس بدأت مغامرةُ الإسكندر الأولى .. تلك المغامرة الَّتي خلَّدت اسمَه في غزوهِ بلاد الفرس أولاً ، والعالم ثانياً .

ولكن .. لماذا اختارَ الفُرسَ ميداناً لمغامراته !

كان الإسكندر يونانيًّا ، وكلُّ يونانيٌّ يذكر غزواتِ الفُرس لليونان ، تلك الحملات التي لم يكن هدفُها إلا الغزو والفتوح ، والاعتداء على حرِّية بلدٍ صغير بعيدٍ عن المطامع .

لم ينسَ اليونانيّون أرضهم التي صبغها الغزاة المعتدون بالدماء البريئة ، ولم ينسوا أمواجَ البحر التي يلوّن الدماء ..

وهؤلاء هُم الفُرس يحتلّون المُدن ، والقرى ، ويستعبدون الناسَ الذين خُلقوا أحراراً .

فلماذا لا يقابل الإسكندرُ الاعتداءَ بالاعتداء ؟ ولماذا يترك هؤلاء الغرباءَ يسرحون ويمرحون في البلاد اليونانيّة ؟

وإذا استطاع الاسكندر يوماً أن يبطِش بهذه الدولة المعتَدية ، فلماذا لا يفكر في أن يكون سيّد العالم ؟

كان على الاسكندر أن يقطع مَضيق الدّرْدَنيل الّذي يفصِل أوروبا عن آسيا .. فتهيّأ لذلك ، ثمّ عَبَرهُ بسهولةٍ دون أن يجد مقاومةً من الفُرس ، أو غيرِهم ، ووقف لأول مرةٍ على شواطىء آسيا .

تذكّر الاسكندر حروبَ طروادة ، وقام برحلة سريعة ، جميلة على الساحل الأسيوي الصّخري ، إلى

موقع طروادة . هناك وقف يتذكَّر أبطال الإلياذة اليونانيِّين الذين حاربوا الطُّرواديِّين عَشْرَ سنواتٍ متواصلة ، حتى انتصروا عليهم بحيلة حِصان طروادة .. فقد شَحَنُوه رجالاً ، وحملوه إلى أسوارِ المدينةِ ، ثم خرجوا منه وفاجأوا أعداءهم ، وانتصروا عليهم .

وفي طروادةَ قدَّم الاسكندرُ قُرباناً إلى الإلاهة « أثينا » ، ثم زار قبر البطل « أخيل » ودهنه بالزيت ، كعادَة اليونانيِّين القُدامى ، ثم وضع الورود عليه ورقص حوله عارياً !

وجاءه بعد ذلك أحدُ مرافقيه ، وسأله أن يسمح بالعزْف على القيثارة التي كان يعزف عليها « باريس » بطلُ طروادة الذي سبَّب الحرب ، فأبى الاسكندرُ وقال :

ـ جئني بقيثارةٍ يونانيّة .. قيثارة « أخيل » . هذه هي القيثارة الوحيدة التي ساعزف عليها . أنا يوناني ولستُ بطروادي !

ما أروعَ تمسّكه بحبِّ أمّته !

وعاد الاسكندر سريعاً إلى مقرّه على المضيق .. وأخذ يفكّر في المصاعب التي تنتظره . فخزانةِ المالِ خاليةٌ ، والمؤنُ التي معه لا تكفيه هو وجيشُه أكثر من ثلاثين يوماً !!

مـــاذا يصنع الاسكندر ليبعث الأمل في نفوس جُنده ! .

لقد قرَّر بسرعة أن يوزّع ممتلكاتِه في مقدونية على رفاق السلاح ، فسأله أحدُ رجاله :

ـ وأنت يا مولاي ، ماذا أبقيتَ لكَ ؟

فأجابه الاسكندر بكلمةٍ واحدة :

ـ الأمل ..

وانطلق الاسكندرُ بجيشه الذي يبلغ الثلاثين ألفاً من المشاة ، وأربعة آلاف فارس .. في الحين الذي قابله الفُرس بجيوشٍ جرّارة تفوق جيشَه عدداً وعُدّة .

لكن الاسكندر كان يتمتّع بميزةٍ عسكرية اكتسبها عن أبيه ، وكانت سبباً في انتصاره على أعدائه .. وهذه الميزة هي : تنظيم الكتيبة المقدونيّة ..

وتظهر هـذه الميزةُ في اختيار فئةٍ من النُّبـلاء والأسياد لُقِّبوا باصحابِ الملك ورفـاقه ، أجرى فيليبُ تدريبهم على أن يحاوروا ويهاجموا ويداوروا ، وأن يعملوا كخليَّةٍ واحدة في القتال ، لا كأفرادٍ منفصلين .

ويأتي في المرتبة الثانية رُماةُ النبالِ الّذين يحتشدون حولَ أجنحة الجيش .

ويأتي في المرتبة الثالثة العنصرُ الأهمُّ ، وهو الكتيبة المؤلَّفةُ من المشاةِ ، يحملون الرماحَ الطويلة المُشْرَعَةَ في الهواء ، بحيث تبدو للعدوِّ كأنها جدارٌ صلبٌ من الدروع ، يبعث الخوفَ في النفوس .

وفي اللحظة الحاسمة من المعركة ، حين يروح الفرسان ينقضُّون على أجنحة العدوّ ، ورُماةُ النبال يُمْطِرونه بسهامهم النافذة – تندفع تلك الكتيبةُ نحو قَلْب العدوّ ، لتنفيذ غرضِها ، دون أيَّة مقاومة . وما أشبهها بصفَّحةٍ من البشر !

وقد أوتي الإسكندر فِطْنةً عجيبة في خَلْقَ الجيش

الحديث ، وترتيب نظـــامه وتنقُّلاته ، وشنّ الهجمات السريعة ، وتكثيفه عند الحاجة . وهو الذي يقول :

« أثناء السير ، اجعل الجيش أجزاءً ، وأمـا في القتال فوحّد الجيش » !

كما أوتيَ الاسكندر براعةً ودهاءً في استغلال اللحظة الحاسمة ، إذ كان يجمع قواتِه ، ويختار أضعف نقطةٍ في العدوّ ، ويضربه الضَّرْبة القاضية .

ولكن .. مـــاذا كان يريد الإسكندر من وراء هذه المغامرة ؟ أيريد الانتقامَ من الفرس الذين جاروا على اليونان فقط ؟ أم يريد أن يغزو آسيا طامعاً ؟

المعركة الأولى :

أخذ جيش الإسكندر الصغيرُ المنتصرُ يتقدّم ، وصحا الفُرس من غَفوَتِهم ، ولكنّ صَحْوَتَهم جاءت متاخرة ، إذ حشدوا قوّاتِهم عند أول حاجز طبيعي ، وهو « نهر غرانيكوس » ، دون أن يقدّروا قُدرة

الاسكندر حق التقدير ، بسبب غباوة رجالهم السرّيين .

فهذا الملكُ الفارسي « دارا » الثالث الذي كان ملقّباً في آسيا ، بـ « ملك الملوك » لم يشأ أن يذهب إلى المعركة ، ويشرف عليها بنفسه ، احتقاراً لخصمه ، واعتقاداً منه بأن الإسكندر ليس إلا غلاماً متهوّراً !

وصل الإسكندر إلى النهر الذي كان قريباً من مضيق الدردنيل ، وكانت حالةُ جُنده جيّدة ، ونشاطُهم حيّاً ؛ لأنهم لم يسيروا طويلاً .

وقفَ الإسكندر على الضفة الغربيَّة ، وتأمّل في أعدائه الفُرس المحتشِدين على الضفّة الثانية ، فلاحظ أن ضفة النهر من ناحيته أرضٌ سهلة ، بينما كانت الضّفةُ التي عليها أعداؤه صخريّة ، وعرة الانحدار .. وكان الوقتُ بعد الظهيرة .

أمر الإسكندر لتوِّه الكشّافين أن يغطسوا في مياه النهر ، ويفحصوا عمق الماء وسرعة انحداره .

وصاح أحد قوّاد الإسكندر :

ـ ماذا تصنع ؟ لا يجوز القتال في شهر حزيران لأنه شهر شؤم على من يقاتل فيه . إن أباك فيليب نفسَه كان يمتنع عن القتال فيه !

فاجابه الإسكندر بهدوء :

ـ إرجع بالتقويم إلى الوراء ! وَافْرِضْ أننا نحارب في شهر أيّار !

وعند عودة الكشّافين من عملهم طلبَ منه أحدُ قادته :

ـ علينا أن ننتظر حتى الغد ! لأن العبورَ مغامرةٌ ! ولا نعرف مخاضاتِ النهر .

تأمّلْ في الشمس يا مولاي ! إنها تميل إلى الغروب .

فاجابه الاسكندر :

ـ لقد عَبَرْنا البحرَ عن مضيق الدّردنيل ، وهو سيشعر بالعارِ إذا لم نقدِرْ أن نجتازَ هذا النهر الحقير .

ثم امتطى جواده ، وبدأ الهجوم .. فكان أولَ رجلٍ يقتحم دوّامة النهر . وامتلأت السماءُ بالنّبال الفارسيّة ؛

بيـــنما كان الجواد «بوسيفالوس» الشديـد يتحدّى تيّاراتِ المياه .

تمكن الاسكندر من بلوغ الضّفة الثـانية ، مبتلاً بالماء ، دون أن يُصاب بأذى - وكانت ضفّة العدوّ يملؤها الطين والوحول ، لكنّه تسلّق المنحَدَر ، ورجاله محيطون به . فهاجمه الفُرس بضَراوةٍ عنيفـة ، وهم يُطلقون أصواتاً عالية ، ويلوّحون بسيُوفهم في الهواء . وكان وطيسُ المعركة يشتدُّ كلما عبرت النهر ، إلى الضفّة الثانية ، كتائبُ من فرسان الاسكندر .

وأصبح الاسكندر هدفاً واضحاً في المعركة ، إذ كان على درعه علاماتٌ خاصة تميّزه عن غـيره ، وعلى رأسه خوذةٌ مزيّنة بريشٍ طويـــل أبيض . فادرك الفُرس على الفور أن هذا هُو الملك ، فاندفعوا نحوه . وقد أُصيب في البدايةِ بسهمٍ في فخذه ، ثم انقضّ عليه من الوراء أحدُ قوّاد الفُرس ، وقذفه برمحٍ تكسّر على درعه . فتناول الفارسيُّ فأسَه ، واندفع إلى الأمـام ، وضربَ الخوذة التي تحمي رأسَ الاسكندر . فتطاير

الريشُ عن الخوذة ، وانشقّت الخوذةُ لشدّة الضربة . فاندفع جوادُ الاسكندر إلى الأمام ، ثم مالَ بشدّة ، فوقع الاسكندرُ أرضاً ، وأصبحت حياته في خطر ، لو لم يُنجدْه رفيقُه « كلينوس » الذي جرى نحوه بسرعة ، وقتلَ الفارسيَّ برمحه . ونهضَ الاسكندرُ يلهثُ وهو ينفض غُبار الموتِ عن رأسه .

في ذلك الحين تمكّن الجنودُ المشاة المقدونيُّون من الانتقال إلى الضفة الثانية بدروعهم سِباحة ، وفرَّ الفُرسُ أمام هذه البسالةِ الفائقة .

وقد خسر الفُرس في هذه المعركة عشرين ألفاً من مُشاتهم ، وألفين وخمسماية من فرسانهم ، في حين كانت خسائر المقدونيّين أربعةً وثلاثين رجلاً .

وهكذا ربح الإسكندر معركته الأولى في آسيا .

٦

من نصر الى نصر

سُرَّ الإسكندر بهذه النتيجة التي لم يتوقَّعها ، وقرَّر خطَّته الثانية الحكيمة ، التي كانت مفاجئة لجنده .

وبدلاً من أن يُطارد « دارا » وينتهيَ منه ، كما كان متوقَّعاً ، أدار ظهره نحو الفُرس ، واتجه جنوباً ، على شاطىء آسيا ، ليعزِّز مركزه ويؤمِّن اتصالَه مع اليونان .

هناك تقدَّم بانتظام في آسيا ، واستولى على الكثير من المدن بدون مقاومة ، إذ أن أخبارَ معركته السابقة

سَبَقَتْه ، وانتشرت بسرعة ، فلم يجرؤ أحدٌ على مقاومته ، أو خوضِ معركة مع ذلك الفتى المنتصر .

ولّى الشتاء ، وأطلّت بشائرُ الربيـــع الذي كسا الأرض ، فحملت هـذه البشائرُ إلى الاسكندر البشرى بأن مملكةَ الفُـرس سيقضي عليها اليونانيّون ، وازدادت ثِقَتُه بَصيره ، وبحظِّه السعيد .

والتفاؤل يجرّ إلى التفاؤل !

نزل الإسكندرُ مدينـــة « كورديوم » القريبة من أنقرة .. هذه المدينة التي حكمها قديماً الملك « ميداس » .

وكان من عادة الإسكندر أن يزور المعـابد في كلّ مدينةٍ يدخلها .

دخل معبدَ المدينة المقدّس ، فإذا هو يرى عَجَلَةً قديمة ، منذ أيام « ميداس » لها عَرِيشٌ مربوط بالعَجلة ، بعُقدةٍ متينـةٍ من الحبال ، كانوا يسمّونها عقـــدة « الكورديان » .

وفي هذه المدينة سأل الاسكندر كاهن المعبد :

ـ ما شأن هذه العقدة ؟

فأجابه الكاهن :

ـ دعْ عنك أمرها ! إنها رمزٌ لأسطورةٍ يتناقلُها الناس .

فقال الاسكندر :

ـ إنني أُحبُّ رموزَ الأساطير .. ماذا تزعم أسطورة هذه العقدة ؟

أجاب الكاهن :

ـ إنني أَخافُ عليك عاقبة أمرها !

فغضبَ الإسكندر، وقال :

ـ أتخوِّفني بهذه العقدة ، وأنا حلاّل العُقد !؟..

قال الكاهن :

ـ يا مولاي ! هُم يزعمون أنّ وراء هذه المدينة بلاداً واسعة ، لا يمكن لفاتحٍ أن يفتحها إلا إذا حل هذه العقدة ..

اقترب الإسكندرُ من العقدة ، وهمَّ بإمساكها ، لولا أن الكاهن منعه ، وقال :

- لا تجرِّبْ يا مولاي ! الكثيرُ من الفاتحين جرَّبوا أن يحلُّوها بأيديهم ، فلم يقدِروا .. أخاف عليك حظّاً سيِّئاً منها .

وعند ذلك غضِبَ الإسكندر ، وأشهرَ سيفَـه ، وضربَ به العقدة ، فشطَـرَها شطرَيْن .

وقف الناسُ مدهوشين ، لأنَّهم لم يفكِّروا في هذا الحلِّ الغريب الذي فاجـأهم به الإسكندر .. وسادَ الصمت برهة .. ثم هتفَ الكاهن :

- إنني أُبشِّرك يا إسكندر ، بأنك أنت القائدُ الذي يفتح بلاد آسيا !

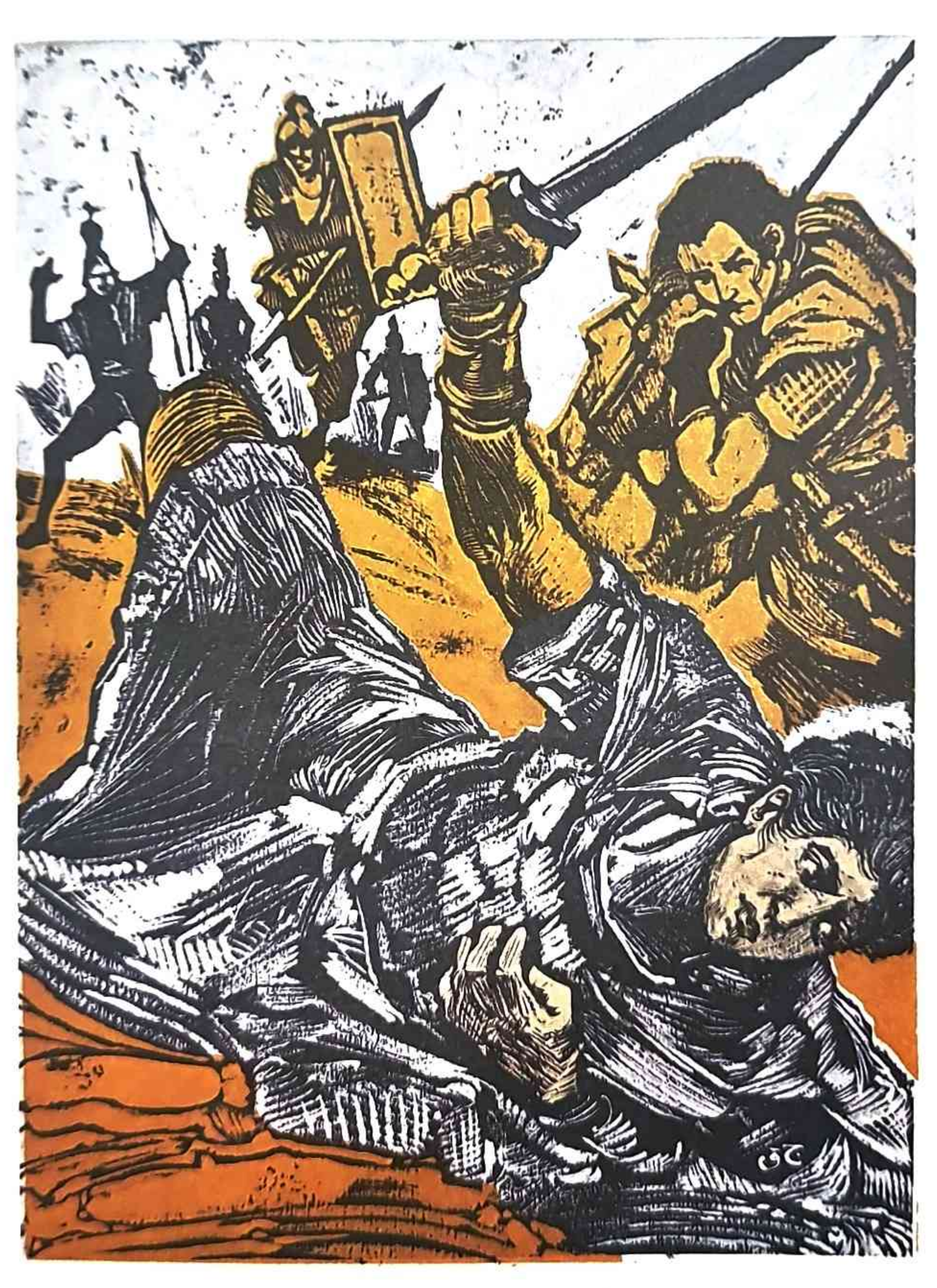
وفي أحد الأيام ، بعد أن زاولَ الاسكندر تمريناتٍ رياضيةً قاسية ، عَرِقَ فيها جسمه ، نزل يسبح في نهر بارد فاصيب بحمَّى شديدة . وأشرفَ على الموت ، دون أن يستطيع أطباؤه شفاءَه ، فطلب طبيباً مشهوراً .

وقبل أن يباشر هذا الطبيبُ علاج الإسكندر ، تسلَّم الاسكندرُ رسالةً سريعة من أحدِ رجاله يحذِّره فيها بان هذا الطبيبَ عميلٌ للملك « دارا » الَّذي استاجره، ليدسَّ السمَّ في العلاج .

وضع الإسكندر الرسالةَ تحت وسادته ، دون أن ينطق بكلمة ، وحين ناوله الطبيبُ الدواءَ ليشربه ، ناوله الإسكندر الرسالةَ ليقرأها . وأخذ منه الدواء ، وشربه جرعةً واحدة ، ثم حدَّق النظرَ في الطبيب الذي كان يقرأ رسالةَ التحذير . وبعد أن انتهى من القراءة التفتَ إلى الإسكندر بخوفٍ وذهول ..

كانت التهمةُ كاذبة ، لكنّها كانت مغامرةً جريئة من الإسكندر . إذ أنه من الصعب أن يخوضَ الرجلُ، مهما كان شجاعاً كالإسكندر ، مثلَ هذه المغامرة ، معتمِداً على ظنّه وشجاعته .

وساءت حالةُ الاسكندر بعد تناوُله الدواء ، وأُغمي عليه ، وخانه لسانُه ، وتقلَّصت قدماه من البرد ، لكنه استردَّ عافيتَه بعد ذلك .



الاسكندر يقع ارضاً في المعركة

كانت المشكلة التي لا تزال تشغل الإسكندر هي لقاءُ دارا ، إذ كان عليه أن يُقابلَ ملكَ الملوك عـاجلاً أو آجلاً .

أما دارا نفسُه الذي اعتقد ـ بعد تلك المعركة ـ أنه أمام خصمٍ خطير ، لا يصحّ التساهُل معه ـ فقد نظَّم جيشاً كبيراً ليقابل به الإسكندرَ وجيشَه .

وانقضى زمن .. كان كلُّ ملك يطارد الآخر في تلك المنطقة القاحلة الجرداء الواقعة بين سورية وتركية . وظنّ الإسكندرُ مرَّةً أنه أوقـع خصمه في الفخ ، بينما كان دارا يسلك بجيشه ، في الوقت نفسه ، اتّجاهاً معاكساً ، ليقابلَ الإسكندر ويقضي عليه .

وهكذا مرَّ الجيشان أحدهما بالقُرب من الآخر ، يحجبُهما الليل ، عَبْر ممرّاتٍ جبلية . وحين تقابلا في النهاية شعرَ الإسكندر بأن دارا قطَـعَ عليه طريق البحر .. وفي هذا خطرٌ عليه كبير . لكن الإسكندر لم يَرْتَبك ولم يتردّد ، فاحبَّ أن يستغلّ الموقف لصالحه ويخوض المعركة ، مهما كانت النتيجة .

وكانت المعركةُ المعروفة بـ « إسّوس » التي خاضها الاسكندر ، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً ، حطّم فيها جيوشَ دارا ، ففرّ دارا على عجلة ، لا يطمع إلا بالسلامة .

انتصر الإسكندرُ بفضل براعته العسكرية ، إذ دفع إلى الأمام بالجناح الأيمن من جيشه ، ليهاجمَ العدوّ . وحين امتدّ خط العدوّ انقضّ الاسكندر بالجناح الأيسر مباغتةً ، دون أن يحسِبَ الفُرس له حساباً ، فيما قامت الكتيبةُ المقدونية بعملها .

ولما انتهت المعركة اتّجه الإسكندر نحو خيمة دارا، فأخذه العَجَبُ والدهشة مما شاهد من مظاهر الترف الفاحش والغِنى ، والذهب ، والحِلى الثمينة ، والعطور ، مما لم تقعْ عليه عيناه من قبل . وصرخ الإسكندر :

ـ حقّاً .. إن دارا ملكٌ عظيم !

ثم إنه خلع درعه ، وقد بدت عليه علائم الإعياء والتعب . وسألَ عن موضع يستحمّ فيه ، فقاده الخدمُ إلى الحوض الذهبيّ الذي كان يستحمُّ فيه دارا .

وهناك هتفَ الإسكندر كصبيٍّ :

ـ ساستحمّ في حمام دارا ذاته ؟

فأجابه أحدُ مرافقيه :

ـ لا يا مولاي ! إنه الآن حمّام الاسكندر .

●

هرب دارا مخلّفاً وراءه زوجتَـــهُ التي كانت في عنفوان الشباب ورقّة الجمال ، ووالدتَه ، واثنتين من بناته ، لا يدري أيَّ مصير ينتظرهنّ ؟

وجيءَ بالنساء اللواتي أصبحن سبايا حربٍ إلى الإسكندر ، وكان بجانبه صديقـــه « هيفاستيون » . فراحت والدةُ دارا الخائفـة ، والمضطربـة ، تطلب الرأفةَ والشفقة من صديقه ، إذ ظنّت أنه هو الإسكندر. وحين نبّهها أحدُ رجال الحاشية إلى خطئها ، قاطعه الإسكندر :

ـ ليس هنالك بيننا فرق ،فمن يتحدث إلى«هيفاستيون» يتحدث إليّ .

وفي تلك الأيام كانت الأسيراتُ يلقَيْن معاملةَ سيِّئة



إنني أبشرك ، أنت القائد الذي يفتح بلاد آسيا

من آسريهن ، لكن الإسكندر عامَلَ نسوة الملك بِرِقَّةٍ واحترام ، وترك لهنّ حِلْيتهن ، وما يملِكن . وسمح لهنّ بأن يدفنّ موتاهنّ باحتفال لائق !

ومما قاله الإسكندر للملكة الحسناء :

« لا تهابي الإسكندر ! لأنني لا أُحاربُ من أجل دارا ، وإنما أُحارب من أجل مملكة » .

ولو كان لدى الإسكندر رغبة في الملكات والأميرات لامتنعَ عن ذلك ، وهو القائل :

« إنه لشرفٌ عظيم أن يقهر الملكُ رغباتِ نفسه قبل أن يقهر أعداءه » !

ولم ينقطع الإسكندر في هذه الغُرْبة الطويلة عن مراسلة والدته ، ولا عن إهدائها الهدايا الثمينة .

وظل اتصاله بأستاذه « ارسطو » قائماً ، وقد كتب إليه رسالة قال فيها :

« إنني أُفضّل أن أنتصرَ في العلم والمعرفة على ان أنتصرَ في الحرب والسيطرة » .

ومما اندهش له الإسكندر ، في الغنائم التي استولى عليها من مَلِك الفُرس ، صندوقٌ حديديٌّ صغير مرصّع بالحجارة الكريمة ، وضع فيه كتابَ « الإلياذة » الذي أهداه إيّاه أرسطو في حداثته .

ومن مغامراته في تلك الحملات ـ على أرض لبنان ـ أنه كان يطوف مرّة مع أحد أساتذته ، ووقعَ الأستاذ على الأرض لضَعفه وكِبَرِ سِنّه ، فبقي الإسكندرُ إلى جانبه حتى حلَّ الليل . فشاهد نيرانَ معسكرٍ للعدوّ بالقرب منه . فاندفعَ نحو النار القريبة ، وقتل رجلين، وخطف جمرة ، وعاد أدراجه إلى معسكره ، حيثُ راح رجاله يُشعلون ناراً ساطعة أوقعت الخوفَ والذُّعر في قلوب رجال الفرس الذين أمعنوا في الفِرار .

وما زال الاسكندر يزحف على شاطىء لبنان حتى وقف على أسوار مدينة « صور » ، وكانت منيعةً أبت الخضوعَ للإسكندر ، بالرغم من مَنْجَنيقاته وقاذفاته اللّهب : ودام حصارُه لها سبعة شهور .

وفي النهاية سقطت « صور » على قدمَي الإسكندر فدخلها فاتحاً ، ولم يحترم شجاعتها !

ثم تابع مسيرته ..

وهكذا تمكّن الإسكندر من احتلال شواطىء البحر ، قبل أن يمتلك البر ، وذلك لكي لا ينقطع اتّصالُه عن أرضه الأمّ . وبذلك أبدى حكمة القائد المتيقّظ الحذِر .

كان الإسكندر في الرابعة والعشرين ، حين أخذ العالم القديم يمتدّ تحت أقدامه ...

الى مهد الحضارات :

والآن ، إلى أين تتجه كتائب الإسكندر ؟

إنها تتَّجه نحو مصر التي طالما سمع عنها ، وعن حضارتها ، وعن عجائبها الكثيرة . وهي أم الحضارات التي ساعدت على تطوير الإنسان .

لم يحتج الإسكندر إلى استخدام القوّة والعُنف في أرض مصر ، ولعلّ هذا يعود إلى أن المصريين لم

يقاوموه ، لأنهم كانوا يريدون التخلصَ من الفتح الفارسي بأي ثمن .

وأولُ عملٍ قام به في مصر هو بنـــاؤه لمدينة الإسكندرية التي لا تزال تحفظ اسم بانيها . فبناها عند مصبٍّ أحد روافد النيل في تلك الأيام . وهي تُعـدُّ الآن من أهم الموانىء البحرية .

كان بناء مدينة الإسكندرية إلهاماً موفّقاً من الإسكندر ، إذ أن الفراعنة طيلة أيّام حُكمهم الذي دام ثلاثة آلاف سنة ـ لم يفكّروا يوماً في إنشاء مدينةٍ في تلك البقعة الهامّة .

وحين عزم الإسكندر على بناء المدينة ، وضع لهـا تصميماً شبيها بمدينة صور . ولما أراد أن يحدّد المكان للبناء ، لم يَجِد الطباشير ، فامر رجـاله بجلب حبوبٍ ذات ألوان باهتة ، ليخطط بها حدود المدينة . وقـد انقضّت ألوفُ الطير القادمة من الدلتا ، على الحبوب ، ونقرتها ... فغضِب الإسكندر لفشله . ولكنّ العرّافين أخبروه أن هذا العمـــل إشارةٌ غيبيّة إلى أن المدينه

ستكونُ الأمَّ المغذّية لهذه الأرض ، وستكون الحارسَ الأمين لها . فاقتنع بذلـك ، وأمر العمال أن يستمرّوا في البناء !

لم يكن الإسكندر مهندساً ، لكنه كان يتمتّع بمخيّلةٍ واسعة ، فراح يبْني المدينة الجديدة على هيئـة خَيْمةٍ مقدونية ، مربّعة الشكل من الأعلى ، مستديرةٍ من القاعدة . وحين انتهت مدينة الإسكندرية بعد وفاته ، جاءت أجملَ مدينة في العالم ، تخترقهـا الشوارع المستقيمة ، بدلاً من الأزقّة المنحنية الملتوية . وقد أُطلق على هذه الشوارع أسمـاء رجال مشهورين ، وأرقام محدودة ، كما وُضعت فيها الأنوار ليلاً ، فكانت أولَ مدينة تضاء في التاريخ .

وقد أرسلَ الإسكندر ، بناءً على وصيَّة أرسطو له ، بعثة علميَّةً لاستكشافِ منابع النِّيل ، فوردت أرضَ الحبشة ، وهمُّها الاستكشافُ ودراسة فصول الأمطار الشاذَّة في مصر ، وخصوبة وادي النيل .

ثم قام الإسكندر برحلةٍ في الصحراءِ إلى واحة

نائية ، يعلو فيها المعبدُ المقدَّس « معبدُ آمون » يقوده إلى ذلكَ إرادتُه التي تعشق أن ترى كل شيء .

وقـــد سلك ، مع جنوده ، طريقاً صحراوياً إلى المعبد فقال له بعضهم :

– إن الطريق طويـــل ، والصحراء ملتهبة ، والشمس لاذعة ... والمعبد لا يزال بعيداً !!

ولكن الإسكندر كان يريد أن يعرف أسرار هذا المعبد ، ويطّلع على شؤون الآلهة فيه ...

هل أضاعوا الطريق ؟ هــــل تدفنهم الرمـال في الصحراء ؟

وبدأ التذمُّر في نفوس جنوده حتى يئسوا من النجاة ...

تُرى .. هل تكون نهاية هذا الجيش العظيم على هذه الصحراء ؟

وفجاةً ، بدأت أسرابٌ من الغِربان تظهـــر في

السماء ، فاستبشروا بظهور الماء ، وراحوا يتتبّعون أجنحتها حيث تميل ..

ها هو المعبد المقدّس يلمع تحت الشمس ! هـا هو معبد آمون !

وخرج الكاهنُ الأكبر للقاءِ الإسكندر ، وهو يعجب من زيارة هذا الرجل لهذا المكان .

وسأل الإسكندرُ الكاهنَ :

ـ هل ترى أنني قتلتُ جميـعَ الذين اشتركوا في اغتيال أبي ؟

فأجابه الكاهن :

ـ نعم .

ثم سأله الاسكندر :

ـ هل حقّاً أنني الرجلُ الذي اختاره القَدَرُ لغزو العالم كله ؟

تفرّس الكاهن في وجـــه الاسكندر ، وعينيه المتوقّدتين ، ولمس يَدَه ، ثم هزّ رأسه ، وقال :

– نعم ... إن ملامحك هي ملامحُ ذلك الرجل الذي سيقدَّر له أن يغزو العالم كله !

يا لها مِن بشرى سعيدة انتشرتْ بين المقدونيِّين ، وزادتهم إيماناً بقائـــدهم الإسكندر ... حتى أصبحوا يتناقلون هذا الحديث :

« إن كُهّان مصر يتوهمون أن الإسكندر ليس من سُلالة البشر ، وإنما هو من سلالة القاطنين في جبـــل أولمبس » .

وسمع الإسكندر بهذا الحديث ، فلم يهتمَّ به كثيراً ، ولكنه قال لسائليه :

– إن السماء تحبّ الناس جميعاً ، ولعلّها اختارت الأفضل منهم .

لكن الإسكندر أخذ يفكر بينـــه وبين نفسه في هذه الشائعة :

« هل هي مجرد خرافة ؟ ألا يمجِّد اليونان أبطالهم ويرفعونهم إلى أسمى مقام .. ! وأنا بطلٌ على كل حال .

إن ذلك سيزيد من منزلتي ونفوذي عند الناس ..»

وعلى الأثر كتب إلى أُمّه يقول :

« إن هنالك حدثاً خطيراً ساحمله إليك قريباً » .

وحين بحثت أمُّـه عن هذا الحدَث علمتْ بما يجول في خاطره ، فضحكت ... وقالت :

– يا إلهي ! إحفظْ ولدي الإسكندرَ الصغير !

٧

نهاية ملك الملوك

أخيراً آنَ للإسكندر أن يغادر أرض مصر ، ليواصل مهمَّته في غزو بلاد الفُرس بعد أن مكثَ طويلاً على ضفاف النيل .

عرف دارا هذا الأمر ، وسيطر عليه الخوفُ . كانت قد ماتت رغبةُ القتال في نفسه ، وأدركَ أنه لن يكون كفؤاً للإسكندر .

وطلب دارا الهدنةَ من الإسكندر ، وعرض عليه أن يدفع له غرامة سخية من المال ، وأن يزوِّجه إحدى

بناته ، ثم يُطلقَ يدَه في الطرف الغربي الآسيويّ حتى نهر الفرات ، شريطةَ أن يُنهي الإسكندر الحربَ معه .

واستشار الإسكندرُ رجاله ، فقـــال له «بارمينو» بتأثر :

ـ لو كنتُ الإسكندر لقبلت بهذا العرض !

لكن الإسكندر ضحك وقال :

ـ لو كنتُ أنا «بارمينو» لقبلت بهذا العرض .

وهكذا أبى الإسكندر عرض دارا ، وصمَّم على أن يستسلم دارا إليه ، واعداً إياه بـأن يعامله معاملة شريفة ، وإلا فإن الاسكندر سيطارده أينما ذهب ، وبدون رحمة ولا شفقة .

وفي هذه الأثناء تلقّى دارا نبأ موت زوجته الملكة التي كانت أسيرة الإسكندر ، وهي تـلد . فخبط دارا على رأسه لحزنه عليها ، واعتقاده بانها ماتت ذليلةً مهانة . لكن رجاله أنباوه ان الإسكندر عامَلها بشرف وكرامة ، وأمر بدفنها عزيزة كريمة كما يدفن الملوك .

عند ذلك رفع دارا رأسه نحو السماء، وهتف :

ـ ساكون مسروراً إذا استولى الاسكندر على مملكتي إن كان لا بدَّ من ذلك. إن لديّ أموالاً طائلة أنفقها ..

تابع الاسكندر تقدُّمه ...

والتقى اليونانيّون بالفُرس أخيراً، في شهر أكتوبر سنة ٣٣١ ق.م. بالقرب من مدينة «أربيل».

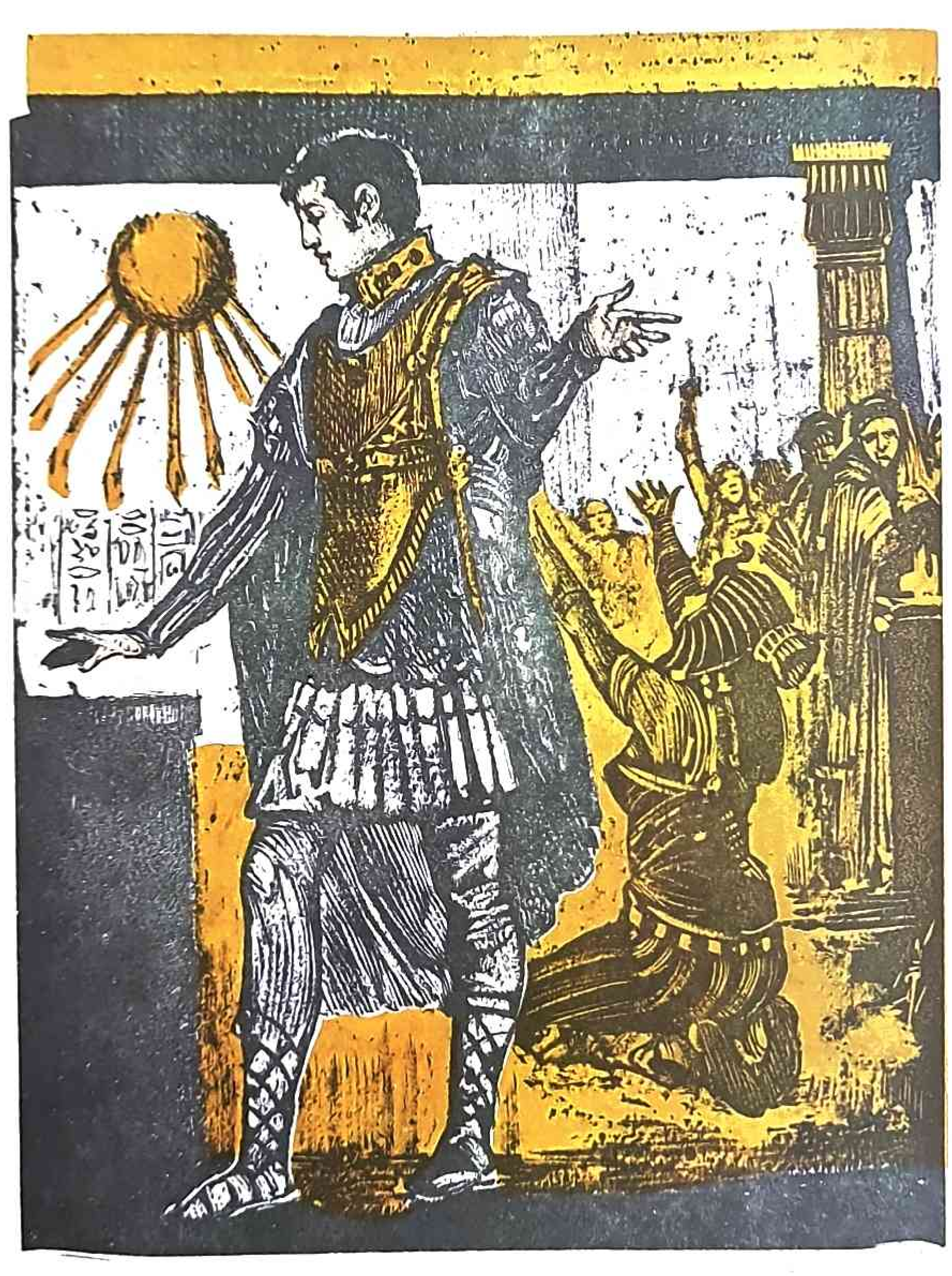
وقبل يوم القتال، استنْفر «دارا» جنوده، وفرسانه وكتائبه، ليقوم بعرض ضخم، على ضوء المشاعل، لكي يبثَّ الرعب في قلوب أعدائه.

راح الجنود يمرّون أمام «دارا» على أصوات الأبواق والطبول : وفجاة ... حدث خسوف للقمر ...

عند ذاك علا الضجيج، وارتفعت أصوات التشاؤم:

ـ إن خسوفَ القمر علامة التشاؤم ... انسحِبوا ولا تقاتلوا !

لكن «دارا» ردّ بجزم :



الاسكندر في معبد آمون

ـ ولماذا لا يكون خسوف القمر علامةَ تشاؤم للأعداء؟ هيّا! تابعوا! إن جيشنا لن يُقهر...

كان اليونانيّون على بُعد مئات الأمتار حين شاهدوا أنوار هذه المشاعل الوهّاجة، فعقد الاسكندر مجلس استشارة مع عرّافيه أولاً، ثم مع قوّاده الذين أصابهم الذهولُ لكثرة أعداد الفرس، وضجيج جموعهم، وصهيل خيولهم، كأنها هديرُ البحر الهائج!

وهناك طرح «بارمينو» على الاسكندر اقتراحاً سريعاً بأن يستغلّ فرصة اضطرابهم وهياجهم ويفاجئهم على الفور في الليل، فأجابه الاسكندر بكبرياء:

ـ لا.. لن أسرق النصر!

ومضى الاسكندر إلى خيمته، حيث نام بدون صوت ولا قلَق. وعند الصباح دخل عليه «بارمينو» وأيقظه من نومه، بعد أن ناداه عدّة مرات، ثم سأله:

ـ كيف تجرؤ على النوم طويلاً قبل المعركة التي ستحدّد مصيرنا؟

ضحك الإسكندر وأجابه :

ـ لقد كسبْنا الحرب سلفاً ، إن دارا حين قرَّر أن يحاربني هنا ، قد دمّر نفسه وجيشه ، ووفّر علينا مشقّة مطاردته ومتابعته في أماكن بعيدة .

وفي اليوم الثاني هاجم « بارمينو » مع قواته الجناحَ الأيسر للعدوّ ، لكنه ، بعد فترة قصيرة طلبَ النجدة ، فكان ردّ الإسكندر عليه :

ـ مُت في مكانك ! الموتُ أشرفُ لك من الاستنجاد بأحد .

ثم إن الإسكندر وضع على رأسه خوذته المرّصعة ، ولبس درعه الضخمة ، ثم خاطب جنده من على ظهر حصانه . وحين أشرَعَ رمحه في الهواء قال :

ـ إذا كنت صادقاً فإن النصر لنا !

ثم بدّل جواده الحبيب بجواد آخر ، وقاد الهجوم ..؟

ولما احتدمت المعركة عَمدَ الفرس إلى حيلة حربية

لم تنفعهم شيئاً : لقد ربطوا مناجل بدواليب عجلاتهم ، آملين أن تقطع أرجل اليونانيّين ، وتعطل زحفهم . لكن هذه المناجل اشتبك بعضها ببعض أثناء الانطلاق ، فإذا بها تعطل عرباتهم عن المسير ... فانحصر دارا في ذلك الزحام الهائج ، وطلب الفرار على جواد سريع ، والإسكندر من بعيد يمتّع نظره بهذا المشهد :

جيش عظيم كانت الدنيا تخشاه بالأمس ، لكنّه لم يعد اليوم شيئاً مذكوراً !

وبعد أن استراح الإسكندر قليلاً أمر بالمطاردة :

ملكٌ يطارد ملكاً ! الإسكندر الشاب يطارد ملك الملوك !

كان الإسكندر ، هذه المرة ، يريد رأس دارا نفسه!

ولكنْ شاء القدر أن يبلغ اليونانيّون دارا وهو في حالة الاحتضار في عربته الملكية ... حيث طعنه بعض رجاله الذين ظنّوا أن قتله سيسهّل لهم فرصة النجاة .

وقبل أن أسلم دارا روحه طلب قليلاً من الماء ، ثم صاح بنبل :

– إنني أشكر الإسكندر وأهنئه لأنه أحسنَ معاملة زوجتي وأولادي !

وعلم الإسكندر ما أصاب دارا ، فاسرع إلى لقائه ، ولكن بعد فوات الأوان . فطرح على جثمانه رداءه ، وتولى حمايةَ أسرته ، ودفنه وسط مراسيم تليق بالملوك والأمراء .

وبعد فترة أمسك الإسكندر بالقائد الفارسي الذي اعتبره مسؤولاً عن مقتل دارا ، وأعدمه . ذلك لأن الخيانة يكرهها الأعداء الشرفاء كما يكرهها الأصدقاء .

آسيا وما وراءها :

وهكذا خضع نصف الأرض للإسكندر ، وصار ملكاً على بلاد هي أمُّ الحضارات في العالم : مقدونية واليونان ومصر والفرس وآسيا ، وهو في السنة السادسة والعشرين من عمره .

ولكن دوافع التوسّع والغزو والانتقال كانت لا تزال تسيطر على نفسه دون أن يسال يوماً تلك النفس :

إلى متى ؟ ولماذا أقوم بهذا العمل ؟

تابع الإسكندر سيره بعد تلك المعركة الحاسمة ، واكتشف بلاداً ، وغزا ممالك ، وحارب لمدة ست سنوات ... قبل أن يعود أدراجه .

ما هو ، إذاً ، طموح هذا الشاب العجيب ؟ وما هو النجاح الذي يعتبر أنه ناجح عنده ؟

لقد أراد هذا الشاب العجيب أن ينشئ امبراطورية يمتدّ بها إلى أبعد الحدود ، يؤسّسها على نظام جديد في العالم ، يستهدف توحيد جميع الشعوب في ظل راية واحدة . ولكن هذا الطموح كان أكبر من أن يحقّقه أي إنسان في ذلك العصر .

انطلقت قصص كثيرة حول حياة الإسكندر ، في السنين الأخيرة التي وصل فيها حتى المحيط الهندي ، وجبال هملايا التي تعدّ أعلى جبال الأرض .

من هذه القصص :

« أن الإسكندر ، أثناء مطاردته لدارا ، عبر صحراء لا انتهاء لها ، وبعيدة عن موارد الماء – حتى أشرف هو ورجاله على الهلاك . وفجأةً شاهدوا جماعة من البدو الرُّحّل ، يركبون الجمال ، ومعهم قِرَبٌ من جلد الماعز مملوءة ماءً .

وحين تعرّف رئيسهم إلى الاسكندر قدّم له الماء ، وروى له قصة خروجه مع رجاله للبحث عن الماء لأطفالهم. وهم الآن يُقدّمون له الماء مفضّلين حياته على حياة أطفالهم ، لأن بامكانهم أن ياتوا باطفال آخرين ، وليس بإمكان أحدٍ أن ياتي بمثل الاسكندر .

لكن الاسكندر أبى هذه التضحية ، وأبى أن يلمس قطرة ماء ، لأن الأطفال أحقُّ بالماء منه ، ثم تابع سيره مع رجاله الذين يلتهبون عطشاً » .

واخترق الاسكندر لأول مرة بلادَ إيران ، وكانت له فيها معارك متقطعة في مناطق متطرفة . ولقد خدع

الفرسَ بان تقدم بصدّامته أيام الشتاء والزمهرير ، حيث كانوا يظنُّون أن ذلك مستحيل عليه . فوصل إلى مدينة « بيرسيبوليس » أغنى مدُن إيران ، وحطّ فيها للاستراحة . ودامت الأفراح والاحتفالات عدّة أيام في تلك المدينة ، وتوّج الاسكندر رأسه بإكليل من الورد، وأمر جنده بإشعال النار في قصر « اكسيركسيس » في المدينة . وحين شاهد الجند حريق القصر هلّلوا فرحاً ، إذ اعتقدوا أن النار هي إشارة العودة إلى اليونان !

كان الشخصُ الوحيد الذي يستطيع أن يسيطر على الاسكندر هو والدته ، لكنها كانت بعيدة عنه ! وقد كانت تكتب له بانتظام ، وطالما وبّخته في رسائلها ، لأنها خافت عليه أن يخونه أحدٌ من رجاله ، مستغلاً كرمه وسماحته وشهامته . وقد أخفى هذه الرسائل عن العيون مخافةَ أن يعلم الناس أن والدته لا تزال تعامله كصبيّ صغير !

أما « انتيباتر » نائب الاسكندر في اليونان، فقد

أرسل إلى الاسكندر رسالة يشكو فيها من تصرّفات والدته في إدارة شؤون الدولة ؛ فكان جواب الإسكندر له ، بالرغم من تاييده له :

« انتيباتر يعلم القليل ... إن دمعة واحدة من والدتي تمحو الألوف من شكواه منها » .

وظلّ الاسكندر على علاقة وثيقة بأستاذه أرسطو... والحقّ ، أن كل ما أنجزه الاسكندر من أعمال نبيلة سلميّة ، بالاضافة إلى انتصاراته ، كانت ابنة مقترحات أرسطو . فقد ضمّ الاسكندر العلماء إلى حاشيته ، وشجع البحوث العلميَّة .

وهكذا كان الاسكندر مثالَ القائد في الحرب، ومثالَ العالِم في السلم .

كان الفاتح العظيم مشغولاً بفكرةٍ استغرقت الكثير من اهتمامه وحياته ، وهي الادارة السياسية لتلك البلاد الواسعة التي استولى عليها . فأنشأ فيها الحكم اللامركزيّ وقسّم البلاد إلى مناطق ، وعين فيها حكاماً محليّين من

فُرس ويونان ومقدونيّين . فقد أدرك أنه ليس بإمكانه وحده أن يحكم هذه البلاد . وقد قال له أحد الموظفين من الفرس ، والدهشة تعلو وجهه :

« كان هنالك دارا واحدٌ ، أما أنت فتخلق أعداداً من الاسكندر » !

فلم يجب .

لاحظ الاسكندر أن حياة الفُرس الغنيّة ، المترفة أخذت تؤثر في الجنود المقدونيين ، فاصبحوا يفضلون الرقة على القسوة ، والنعيم على الخشونة ، كما أفسدتهم كثرة المغانم . كما لاحظ أن رفاقه أخذوا يرتدون الألبسة الشرقية الغالية ، ويتعطرون بأحلى العطور ، فانكر عليهم ذلك ، حتى وبخ أحد مرافقيه ذات مرة لانغماسه في الترف ، بقوله :

« إن العيش من أجل المتعة والترف لهو دناءة وحقارة للرجال » .

ولكي يعطيه مثلاً على أنه يمكن السيطرة على رغباته ، انطلق أمامه ، إلى حيث برهن له أنه لا يزال

ذلك الفتى الرياضي النشيط ، الجريء ، الذي يحكم أمرَ نفسه .

وفي أحد المشاهد ، طلب من رجاله أسداً ، فجاءوا بأسد ضخم الجثة ، وحين رآه الاسكندر لبس عُدَّة القتال ، وأخذ بيده خنجره ... ولقي الأسد ...

وزأر الأسد ، واستعدَّ للوثوب !

وعند ذاك بات جند الاسكندر في دهشة من أمرهم:

ماذا يريد الاسكندر من منازلة الأسد ؟

وما هي إلا وثبة ، حتى كان خنجر الاسكندر في قلب الأسد ، والأسد يخبط بقوائمه ، ويرسل زئيراً موجعاً ...

التفت الاسكندر إلى رجاله ، وقال :

« في كل لحظة ، يجب على كل واحد منكم أن يكون مستعداً لمبارزة الأسد » !

وقد تركت تلك المبارزة أثراً كبيراً في نفوس رجاله الشجعان الأقوياء .

ثم إن الاسكندر واصل مسيرتـه نحو الشرق .. نحو بحر « قزوين » ، نحو بلاد الأفغان ، نحو حدود الصين ، وأخيراً نحو جبال هملايا المعمّمة بالثـلوج الأبدية ، نحو ممرّ خيبر ... وإلى الهند .

وفي أثناء سَيره هذا خطفت قبيلةٌ متوحشة حصانه المقدّس « بوسيفالوس » فاخذه حزنٌ شديد على فَقْدِ رفيق الطريق ، والحروب ، والحياة .

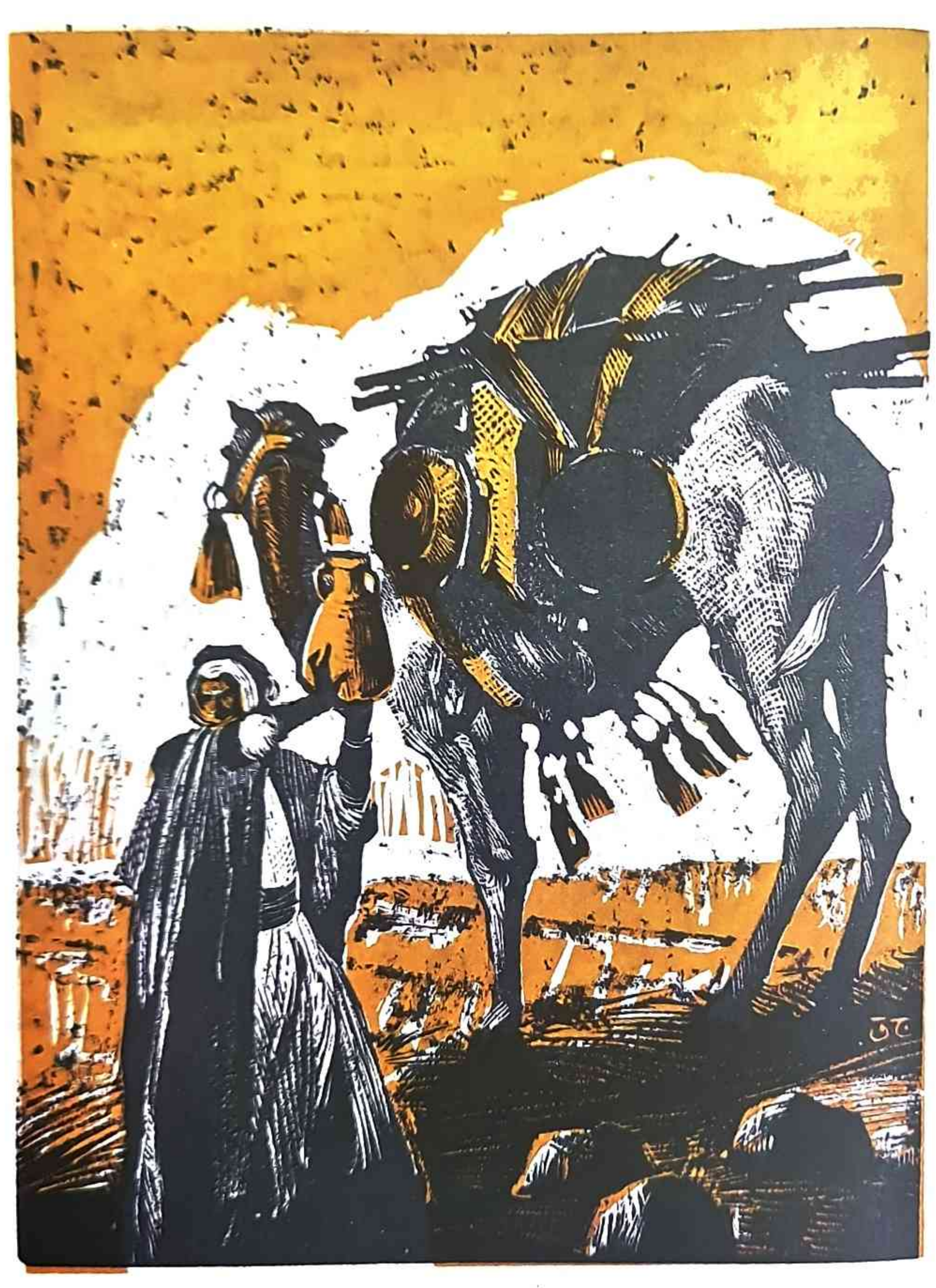
« حصاني الحبيب ! أُريد حصاني . ابحثوا عنه في مشارق الأرض ومغاربها . إنه رمز نجاحي في الحياة » .

راح الجنود يفتشون عن « بوسيفالوس » في كل مكان ، والاسكندر ملازمٌ لخيمته ، لا يقابل أحداً ..

وفجاة سمع هذا النداء :

ـ مولاي ، هذا هو الحصان ..؟ وهؤلاء هم سارقوه !

نهض الاسكندر يصفّق طرباً ، ويرقص فرحـاً ، وعانق حصانه الحبيب ، وأخذ يقبّل وجهه ، وشعره ، ويلمس ظهره ..



رئيس البدو يقدّم الماء الى الاسكندر

ـ لقد عــدتَ إليَّ يا حصاني الحبيب ! كيف تتركني وحدي في هذه البلاد البعيدة المجهولة ..؟ إنك رمز النصر !

وَصَهَل الحصان للقاء الاسكندر .. وراح يلعق رأسه ووجهه بلسانه ، والتفت الاسكندر إلى أصحابه ، وقـال :

ـ إن من لا يستطيع أن يحمي حصانه ليس بجدير أن يُقاتِل !

٨

زواج الاسكندر

لم يفكّر الاسكندر في الزواج .. لأن أعماله الحربية كانت تَشْغَلُه عن ذلك . لكنَّه وقع ، ذات يوم ، فجأة، في حب أميرة جميلة ، شرقيَّة وغنيَّة ، فطلب يدها بدون تردد ، وكان عمره ثمانية وعشرين عاماً .

ووافقت الأميرة « روكسان » على الزواج من أشهر رجل في العالم ، ويبدو أن إخلاص الاسكندر «لروكسان» كان صادقاً

ولا شك أن هذا الزواج حقّق فائدة سياسية أيضاً ،

لأن الاسكندر بزواجه هذا تقرّب من شعب الأميرة الأسيويّ..

ولكن أواخر أيام الاسكندر لم تكن سهلة كاوائلها ، فقد بدأت الأمور تتبدّل معه ، وتسير من سيّء إلى أسوأ .. إذ ارتكب أخطاء مع أعوانه ، دفع ثمنهـا الإسكندر في النهاية ، نتيجة طبعه الحادّ ، وعواطِفه النزِقة التي لم يتمكن من التحكُّم فيها .

صار الاسكندر يفقد أصدقاءه واحداً بعد واحد . بل يتخلَّص منهم لأتفه الأسباب .

لماذا ؟ لعله صار يخاف على مملكته ، وعلى نفسه من أصدقائه أنفسِهم . إذاً !؟

ليشدد الحراسةَ حوله !!

وهكذا كان ..

مرَّ الاسكندر ، ذات يوم ، بصديقه منذ الطفولة « فيلوتاس » إبن القـائد الشجاع « بارمينو » الذي كان يعتمد عليه الاسكندر في حروبه ، ولم تكن نظرة

« فيلوتاس » إليه نظرةً هادئة ... لذا تسرّب الشكّ إلى نفسه ! وانصرف عنه دون أن يكلّمه كعادته .

أدرك « فيلوتاس » هواجس الاسكندر ، فاجتمع بأبيه وطلب إليه ـ كصديق للاسكندر ـ أن يدعوَه إلى إصـــلاح الأمور ، لأن التذمّر قد فشا في نفوس الجنود .

وفي المساء قابل « بارمينو » الاسكندر وصوّر له ما يراه ..

لم تكن نتيجة هذه المقابلة إلا نقمةَ الاسكندر على « فيلوتاس » ، ولكن ، كيف يستطيع أن يتخلّص منه ؟

لقد اتهمه بالاشتراك في مؤامرة وهميَّة لاغتياله ، وأمر بالقبض عليه ، وحبسه ، وأمر بتعذيبه .

اختفى الاسكندر وراء ستارة ، وهو يرى صديقه على خشبة التعذيب ، ويسمع أنينـه المصحوبَ بالألم ، وحين ازداد أنينُه نهض الاسكندر من مخبئه ، وتقدَّم منه ، وصفَعَهُ بيده ، ثم قال له :

ـ كان يجب ألا تحمل قلباً جباناً كهذا القلب ، إذا أردتَ أن تشترك في مؤامرة ضدّي .

فاجابه فيلوتاس :

ـ أية مؤامرة هذه يا إسكندر ؟ قُـلْ إنك تريد قتلي كما قتلتَ أصدقاءك أمسِ . ولكنك بهذا لا تقتل إلا نفسك !

ولم يستطع الاسكندر أن يملك غضبه، فامر بإعدامه .

ولكن .. من ذا يخبر أباه بما أصاب ولده ؟ لا شكّ أن الجنون سيُصيبه إذا علم بالأمر .. هذا الأب الذي فقد في الحروب ولدين ، ما يصنع إذا علم بما صنع الاسكندر بولده الثالث ؟

ليكن الموت نصيبه قبل أن يصل إليه النبأ !

وفي الصباح وجدوا جثّة « بارمينو » ملقـــاةً على الطريق .

أهذه هي نهاية الرجال الذين قـادوا الاسكندر

إلى النصر ؟ هل فقد الاسكندر عقله ؟ هل فقد الثقة بكل صديق من أصدقائه ؟

وهذا هو البطل « كلينوس » أخو الاسكندر في الرضاعة ، والضابطُ الشجاع الذي أنقذ حياة الاسكندر في أول معركة له في آسيا على ضفاف نهر « غرانيكوس » لم يسلم هو الآخر من بطش الاسكندر .

تشاجر الاثنان في وليمة شراب ، فنهره الاسكندر :

ـ أسكت ! أيها الجبان !

تألم كلينوس لهذه الكلمة ، وصاح به :

ـ هل أنا الجبان ؟ هل يستطيع الجبان أن ينقذ حياة الشجاع ؟ لولا سيفي هذا لما استطعتَ أن تصل إلى هذه الأرض ! ولكنك رجل أنانيّ سفكتَ دماءنا ضياعاً في سبيل أمجادك الشخصيّة .

ثار الغضب بين الاثنين ، ودعا كلاهما الآخر إلى المبارزة ، على مشهدٍ من الأصدقاء . وتقلقلت السيوفُ

في الأغماد ، لكن أصدقاءهما حاولوا الفصل بينهما فلم يقدروا .

تحدّى كلينوس الاسكندر ، وهو يلهثُ غيظاً ، فمدّ الاسكندر يده إلى سيفه ، فلم يجده ·

ـ أين سيفي ؟ ردُّوا عليّ سيفي لأعلّم هذا المتمرّد معنى الكرامة .

ساد الصمت .. والاسكندر يفتش عبثاً عن سيفه .

وأمر حامل البوق أن يعلن النفير العام ، فابى حامل البوق أن يفعل ..

وفي هذا الحين أخرج بعض الضباط كلينوس من القاعة تخوُّفاً من العاقبة ، لكن كلينوس وثب من الباب الآخر ، وراح يخاطب الاسكندر بابيات لشاعر يوناني :

ـ « أهكذا تكافىء اليونان أبطالها ؟

هل يدّعي رجل واحد هذه الانتصارات التي ربحها الألوف » ؟

فاحتدّ الاسكندر غضباً ، وهجم على واحد من حرسه ، وانتشل رمحه ، فرمى بـه صدر كلينوس ، فسقط هذا على الأرض مضرّجاً بدمه .

ولكن الاسكندر صحا من سكْرته ، وحين رأى جثة صديقه هامدةً بين يديه حاول قتل نفسه .. فحالوا بينه وبين ذلك .. ولبث على الأرض طريحاً ، مدة ثلاثة أيام ، وهو يتأوّه حزناً على مقتل رفيقه !

الفيلة عند أبواب الهند :

وبعد أن اتجه الاسكنَدر إلى جنوبي وسط آسيا ، مارًّا بين جبال الأفغان الوعرة ، بلغ ممرّ خَيْبر الذي يشقّ الطريق إلى الهند .

وكلّما ازداد تقدّم الاسكندر كانت مشاكلُه تزداد مع جنده وأعوانه الذين أصبحوا يَروْن في قائدهم فاتحاً مغامراً لا يشبعه شيء ، فأخذوا ينتقدون تشبُّهه بالملوك الشرقيّين الّذين تعوّدوا البذخ والترف ، ورؤية الناس يركعون لهم ويسجدون .

وذات يوم، وجد الإسكندر أن الغنائم الكثيرة المتراكمة في أيدي الجنود تؤخّر تقدمه، فما كان منه إلا أن اتخذ قراراً سريعاً شبيهاً بالقرارات التي رفعتْه إلى قمة المجد، إذ أمر رجاله أن يُشعلوا النار في عجلته ليعطي مثالاً للآخرين كي يقتدوا به.

وهكذا ظل الإسكندر يعتقد بأنه لا مشكلة عنده إلا استطاع أن يقهرها بشجاعته وقوّته، إلى جانب ذكائه وبراعته.

وبينما كان يتابع خطَّ سيرهِ التقى في الطريق بحاكم هنديّ، وكان نبيلاً ذكيًّا، أراد أن يتفادى الحرب مع الإسكندر، فسأله الهنديّ:

- لماذا نتحارب؟ إذا كنتُ أنا أغنى منك أعطيك مني الكثير، وإذا كنتَ أنت غنيّاً فلن أردَّ عطاءك، بل آخذه.

فَسُرَّ الاسكندر من ذكاء هذا الحاكم، وأنشأ حِلفاً معه، كي يتسنى له غزو بقيَّة الهند، وأهداه ثروة كبيرة مما يحمل من الكنوز ..

وكانت هذه البادِرة الجديدة منه في الإهداء والعطاء وسيلة ناجحة في كسب قلوب أعدائه .

وما كاد الإسكندر يصل إلى نهر « البنجاب » في الهند ، حتى قابله جيشٌ هندي ، بقيادة ملكه « بوروس » الذي وضع جيشه على ضفة النهر الثانية ، كي يمنع الاسكندر من التقدّم .

وحين عبر الاسكندر النهرَ فاجأ « بوروس » جيشَ الاسكندر بالفيلة التي رآها جنوده لأول مرة ، فأثارت فيهم الخوف في بداية الزحف . لكن النظام المقدونيّ العسكري تمكن من مجابهة الفيَلة المسلّحة ، وما هي إلا ساعة حتى تمكنت الكتيبة من شقّ طريقها بين الفيلة كما فعلتْ حين دمّرت عربات ملك الملوك في معركة « إسوس » الكبرى .

كانت هذه المعركة سنة ٣٢٥ قبل الميلاد . وهي آخر معركة خاضها الاسكندر ، واستخدم فيها فنون القتال .

عبر النهر ليلاً ، وأبقى قسماً من رجاله في الطرف

الآخر إلى وقت المعركة ، ثمّ انقضّ بجناح جيشه الأيسر على أضعفِ نقطة في العدوّ .

وكان ملك الهند يمتطي فيلاً ضخماً ، عليه الدرع الملكية ، وبذلك أصبحَ هدفاً سهلاً للسّهام التي راحت تنصبّ عليه ، ووقع أسيراً ، فحملوه إلى الاسكندر فسأله :

ـ أية معاملة تريد ؟

فأجاب :

ـ معاملة الملوك .

فسأله الاسكندر : ماذا تعني ؟

ـ كل ما أعنيه هو أنني ملك .

فأعجب هذا الجواب الاسكندر ، وعامله معاملة شريفة ، وأكرمه ، وكانت بينهما صداقة عميقة .

وفي تلك السنة مرض جواد الاسكندر العزيز « بوسيفالوس » الذي شهد أيام الاسكندر وحروبه ، على

أثر جراحات أصـــابته في تلك المعركة ، فاضطرب الاسكندر ، وحضّ أطباءه على تضميد جراحه .

ولكن حصانه قد انتهى !

لم يصدّق الاسكندر بان حصانه يموت ، قبل أن ينتهي من مهمته ... وحين وجده ممدّداً على الثرى بدون حراك ، انحنى على رأسه يقبّله ويرثيه كأنه إنسان عزيز :

ـ يا حصاني الحبيب ! هل تتركني وحدي ؟ إنك كنت رمز النصر فهل أنت الآن نذيري بالشرّ ؟

وبعد يومين فقدَ الإسكندر كلبه العزيز أيضاً ، فكان ذلك بادرةً من بوادر التشاؤم . ولكنه أطلق اسم الحصان على مدينة أنشأها لذكراه ، كما أطلق اسم كلبه على مدينة ثانية تخليداً لذكراها .

التمرد :

قطع رجال الاسكندر ، حتى الآن ، أحد عشر

ألف ميل في طول الأرض وعرضها ، دون أن يشاهدوا بيوتهم وأزواجهم وأوطانهم طيلة ثماني سنوات .

وكانت المعركة الأخيرة التي خاضوها نصراً لهم في الظاهر ، ولكنها كانت بدء الهزيمة أيضاً .. لأنها أتعبت المنتصرين ، وقذفت بهم في بلاد واسعة الأطراف في قارّة مهجورة .

وكان على الاسكندر بعد انتصاره على « بوروس » أن يكافح في مناطق أخرى لا يحكمها « بوروس » ، فأخضع خمس عشرة دولة هندية ، ودخل خمسة الاف مدينة وقرية . ثم توقف عند هذا الحد ، وكان ذلك نهاية المطاف ، إذ لم يبق بإمكان المقدونيين أن يواصلوا الزحف نتيجة الإرهاق والتعب .

كان أمل الاسكندر أن يصل حتى نهر « الغنج » المقدّس الذي يقسم الهند إلى قسمين ، لكنه وصل إلى « البيز » الذي تفصله عن « الغنج » مسافات شاسعة .

هنا تمرّد جنده عليه لأول مرّة ... ولكن بلطف ،

إذ أبى المقدونيون أن يجتازوا نهر «البيز» لمتابعة الحرب في الهند... وهذا يعني نهاية أي جيش كان.

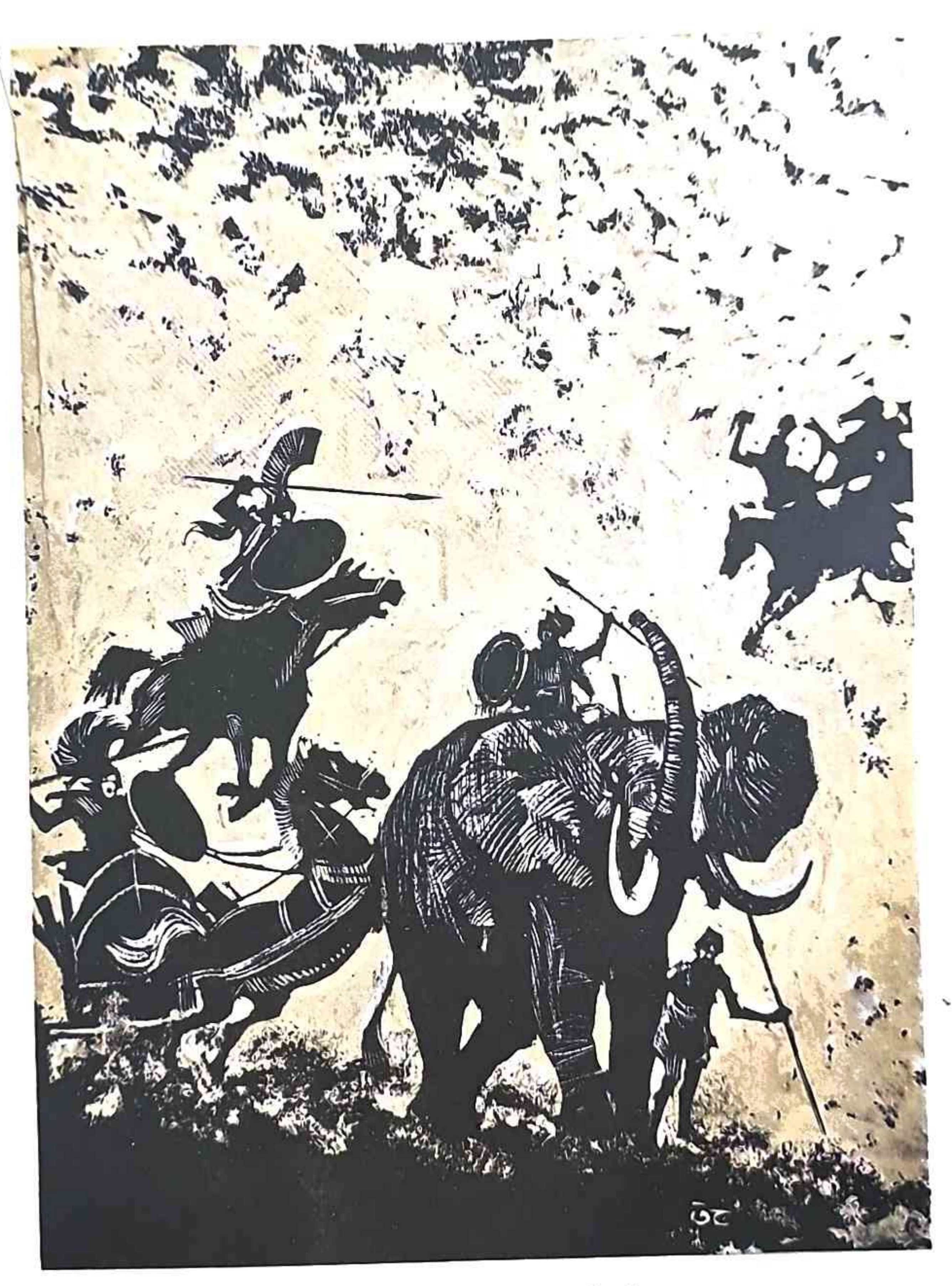
ولقد حاول الاسكندر أن يقنع رجاله باستئناف القتال، ولكي يثيرهم ويحضّهم خلع ثيابه، ووقف يكشف عن جراحه قائلاً:

انظروا.. إن جميع أنواع الأسلحة من سيف ورمح وفاس قد تركت آثارها في جسدي!

لكن اللعبة لم تنجح، وأبى المقدونيون أن يلحقوا به، بالرغم من أنه أثار عواطفهم. وإذ ذاك لجأ الاسكندر إلى خيمته الارجوانية واعتزل فيها أياماً. فتجمّع جنوده حول خيمته، يحاولون إقناعه... لكنه ظلّ، بالنسبة إليهم، ذلك الرجلَ الفرد الذي لا يضاهى... إنه بطل، وشجاع لا يماثله أحد!

وقد أجابهم الاسكندر:

ـ إنني سأتابع تقدّمي وحيداً!



الاسكندر يجابه فيلة الهند

وراح يَعدهم بالغنائم، والمغامرات والأمجـــاد، والوصول إلى المحيط الهنـدي، والبحر الأبيض المتوسط غرباً حتى جبل طارق. لكن جنده أبوا أن يطيعوه.

وأخيراً وافق الاسكندر عَلى رأي جنوده، وعاد الجيشُ المقدوني، بعد أن قام بأعاجيب لم ينجزها أيُّ جيش آخر حتى اليوم.

وبدأت العودة إلى أرض الوطن !

٩

في طريق العودة

لم تكن العودة الشاقة نتيجة هزيمة ، على الرغم من أن رجال الاسكندر قاسوا فيها الكثير. وقد قام الإسكندر وكان يهتم بالتاريخ ، بعملٍ ظلّ أثراً للأجيال القادمة ، قبل أن يترك الهند . فهو الذي أمر بصنع الدروع ، وكافّة عُدّة القتال ، وكسا الخيل اللُّجُمَ والسروج الواسعة ، وقام بتوزيعها في مناطق متفرقة عند القتال .. إذ أراد من الأجيال القادمة أن تعتقد بانه هو وجنوده أبناء مقدونيا الذين لم يعرفوا الهزيمة كانوا أكبر من الحياة .

كما بنى أسطولاً قطع عليه الأنهار ، وأدرك أن الانتقال على سطح الماء يبعث النشاط والراحة .

ومع ذلك كله واجهتْه مصاعبُ كثيرة ذلّلها بشجاعته وقوّته . ومن ذلك أن رجالاً من الأعداء احتموا داخل مدينتهم ذات الأسوار المنيعة ، فصنع الاسكندر سلالم ، وكان هو أول رجل يصعد عليها . ولقد تسلّق السور ونزل داخل مدينة العدو ، فارتبك أهلها ، حيث ظنّوه بدرعه اللامعة شبحاً من الأشباح ، يسقط عليهم . فتفرّقوا عنه .. لكنهم نظروا بعد حين ، فشاهدوا رجلاً ينضمُّ إليه رجلان آخران تمكنا من تسلق السور ، فعادوا وهاجموا الثلاثة بعنف .

وأُصيب الاسكندر بجرح عميق في صدره ، فانطرح على الأرض وراح رفيقاه يدافعان عنه كي ينقذا حياته . إلا أن الاسكندر استجمع بقية قواه ، وقتل أقرب جندي من الأعداء بينما تمكن المقدونيّون من تسلق الأسوار ، فحملوا مليكهم الجريح إلى مكان أمين .

يومذاك أشرف الاسكندر على الموت ، لأن رأس السهم بقي عالقاً بين ضلوعه بعد أن تكسّر . فكان استخراجه من صدره صعباً .

وقد سأل وهو يعاني الألم الشديد :

– من الأقوى : الحياة أم الموت ؟

فكان الجواب :

– الحياة ، لأنها حافلة بالمصاعب أكثر من الموت !

ثم سأل فيلسوفاً أسيراً كان حاضراً :

– ما هو مقدار الزمن الذي يجب أن يعيشه الانسان ؟

فامتنع ذلك الفيلسوف عن الاجابة بمهارة ضحك لها الإسكندر .

سُرّ الإسكندر بهذا اللقاء ، وأمر باطلاق سراح الفلاسفة ، بالرغم من إصرار القاضي على إعدامهم .

وطالت رحلة الاسكندر النهريّة شهوراً ، بلغ أثناءها المحيط الهندي ، حيث قدّم القرابين للآلهة ، وطلب منها ألا تسمح بعده لأي فاتحٍ في التاريخ أن يتجاوز ما بلغه في رحلته الطويلة الشاقة !

وترك الاسكندر وراءه الهند عائداً إلى الوطن ، بعد أن قسم جيشه إلى قسمين : الأول منهما يسلك طريق المحيط الهندي إلى الخليج العربي ، والثـــاني يتبـع الاسكندر بنفسه عبر صحراء واسعة ، مقفرة ، راح رجاله فيها يتساقطون كالذباب ، نتيجة الارهاق والجوع والعطش.

وبعد مدّة طويلة اقترب الاسكندر من إيران حيث وجد الفوضى والثورة تعمّ المقاطعـــات ، فهدّأ الأمور ، وطردَ الحكام الفاسدين ، وأعاد الأمن إلى قلوب الناس ، وألّف ما بين الفرس واليونانيين ، كما استعاد ثقة الناس به مرة ثانية .

كان الفقر والجوع يسيطران في كل مكان : وقد جاءه حاكم إحدى المقاطعات بثلاثة آلاف قطعة ذهبية يسترضيه بها ، بدلاً عن المؤن التي يحتاج جيشه اليها ، فقرّب الاسكندر فم حصانه من هـــذه القطع الذهبية فحاد عنها الحصان ، فأدرك الجميع ماذا يعنيه الاسكندر وحاول الحاكم عبثاً أن يتجنّب غضبه .

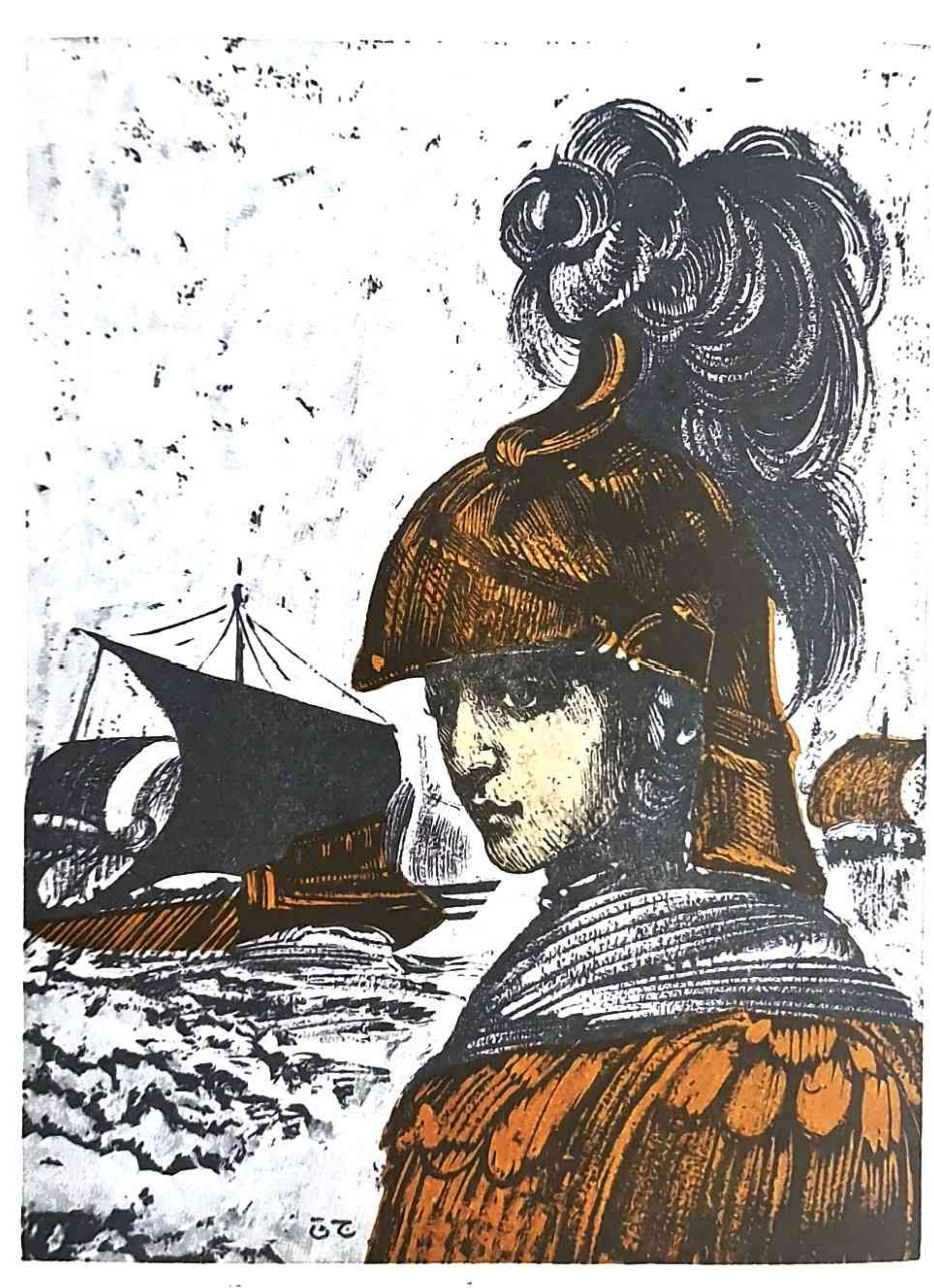
وصل الإسكندر بعد ذلك، إلى المدينة «بيرسَ بوليس» التي غادرها قبل ستّ سنوات، وكان عمره اثنين وثلاثين عاماً، وقد استغرقت رحلة العودة من الهند سنة ونصف السنة.

في تلك المدينة زار الاسكندر قبر «قورش» العظيم مؤسس الأمبراطورية الفارسية، وقد نقش على قبره:

«أيها الانسان، كائناً من كنت، ومتى أتيت: أنا قورش الذي غزا الامبراطورية الأشورية، أسالك ألاّ تحسدني على هذه الأرض الصغيرة التي تحضن عظامي».

وكان هذه الكلمات قد نفذت إلى صدر الاسكندر، فوقف صامتاً، يتأمل في توافه هذه الدنيا.

وكانت هناك حادثة تُنذر بالشرّ: إذ كان يسافر معه عرّاف هندي عجوز تنبّأ له بأحداث سيئة وشيكة الوقوع، وبنى لنفسه محرقةً من الحطب، ثم أضرمَ النار بجسده، بعد أن ودّع الجميع. ولقد رأى الاسكندر هذا المشهد، فتأثر له كثيراً، وراح يشعر بأن نهايته باتت قريبة.



الاسكندر واسطوله الذي قطع عليه الأنهار

الاسكندر يغزو العالم ما عدا نفسه :

بدأ الرعب يستولي على نفس الاسكندر ، وبدا أنه فقدَ تلك اللَّمسة السحرية التي جعلته محبوباً ، كما أن جيشه القويّ المخلص أصبح يميل إلى نعيم الحياة وترفهـا ، وفسدت أخلاق أولئك المقدونيين الشجعان .

ولكن ـ بالرغم من ذلك ـ ظلَّ الاسكندر صاحب عقلٍ يفكّـر ، ويدبِّر .

لقد كان أحد أهدافه توحيد شعوب العالم كلهـا . وقد بدأ بتنفيذ فكرته عملياً يومَ تزوّج من الأمـيرة الآسيوية « روكسان » . ثم تزوج ابنة « دارا » ، وبذلك ضمَّ إليه الجناحين الملكيَّين الفارسيَّين المتنازعين ، كما أنه أمر القواد المقدونيِّين أن يتبعوا طريقته ، ويتزوجوا من الفارسيات .

وقد شهدت مدينة « سوس » القديمة أكبر احتفالٍ بالعرس على مر التاريخ . إذ تزوج ألوف من رجـاله ألوفاً من الفارسيات في احتفال كبير ، وهب الإسكندر خلاله كل عريسَين كاساً ذهبيَّة . وسميت هذه الحفلـة حفلةَ « زواج الغرب والشرق » .

وفي الطريق إلى « بابل » أصيب « هيفاستيون » أعزّ أصدقاء الإسكندر ، بحمّى شديدة قضَتْ عليه . وجُنّ الإسكندر من الحزن حتى إنه أمَر بجَزّ معارفِ الخيْل حِداداً على صديقه . وحين وصل « بابلَ » داهمتْه نوبات جنونيَّة كانت نتيجةً لنَدَمه على أشياء سبق أن ارتكبها في مسيرته . وأصيب بالهذَيان .. وأقام في مركبٍ في النهر ، ولم يكن ينزل إلى المدينة إلا قليلاً .

وأخيراً هاجمته حمّى « بابل » فقهرتْ ذلك الّذي لم تقهره معاركُ الأيام ، وما أسرْع ما أضحى الإسكندر الكبير جثَّةً هامدة ! هذه هي الأيام ..

ولقد سأله من حضروا ساعته الأخيرة عمّن سيرثُ عرش البلاد التي فتحها ، فكان جوابه :

« الأقوى » ..

ويا لها من كلمة صادقة صريحة تجسّد واقع الحياة ..



الفهرس

النَاجِحُونَ

●

مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب : في الحرب والسلم ، رجالاً ونساء ، قديماً وحديثاً .

١ — زنوبيا
٢ — خالد بن الوليد
٣ — نابوليون بونابرت
٤ — بتهوفن
٥ — طارق بن زياد
٦ — هنيبعل
٧ — كولومبس
٨ — عبد الرحمن الداخل
٩ — صلاح الدين الأيوبي
١٠ — مدام كوري
١١ — اديسون
١٢ — غاندي
١٣ — شكسبير
١٤ — المتنبي
١٥ — الاسكندر
١٦ — باستور
١٧ — ابن بطوطة
١٨ — هيلين كيلر
١٩ — شجرة الدر
٢٠ — ليوناردو دي فنشي

قالوا ...

عن سلسلة « الناجحون »

« ابتعت المجموعة القيمة التي أصدرتموها تحت عنوان « الناجحون » وحملتها إلى بيتي هدية إلى عائلتي الصغيرة ، إلى بناتي ، إلى زوجتي ، وهدية لنفسي .

لقد قلتم انكم تقدمونها إلى الفتيان والفتيات ، ولكني أؤكد لكم انها بطباعتها الأنيقة وأسلوبها الممتع وتكثيف المعلومات بشكل ناجح أخاذ تنفع الكل وتصل بينهم وبين معارف سبق أن قرأوها فنسوها ، أو لم يسبق لهم أن ألمّوا بها ...

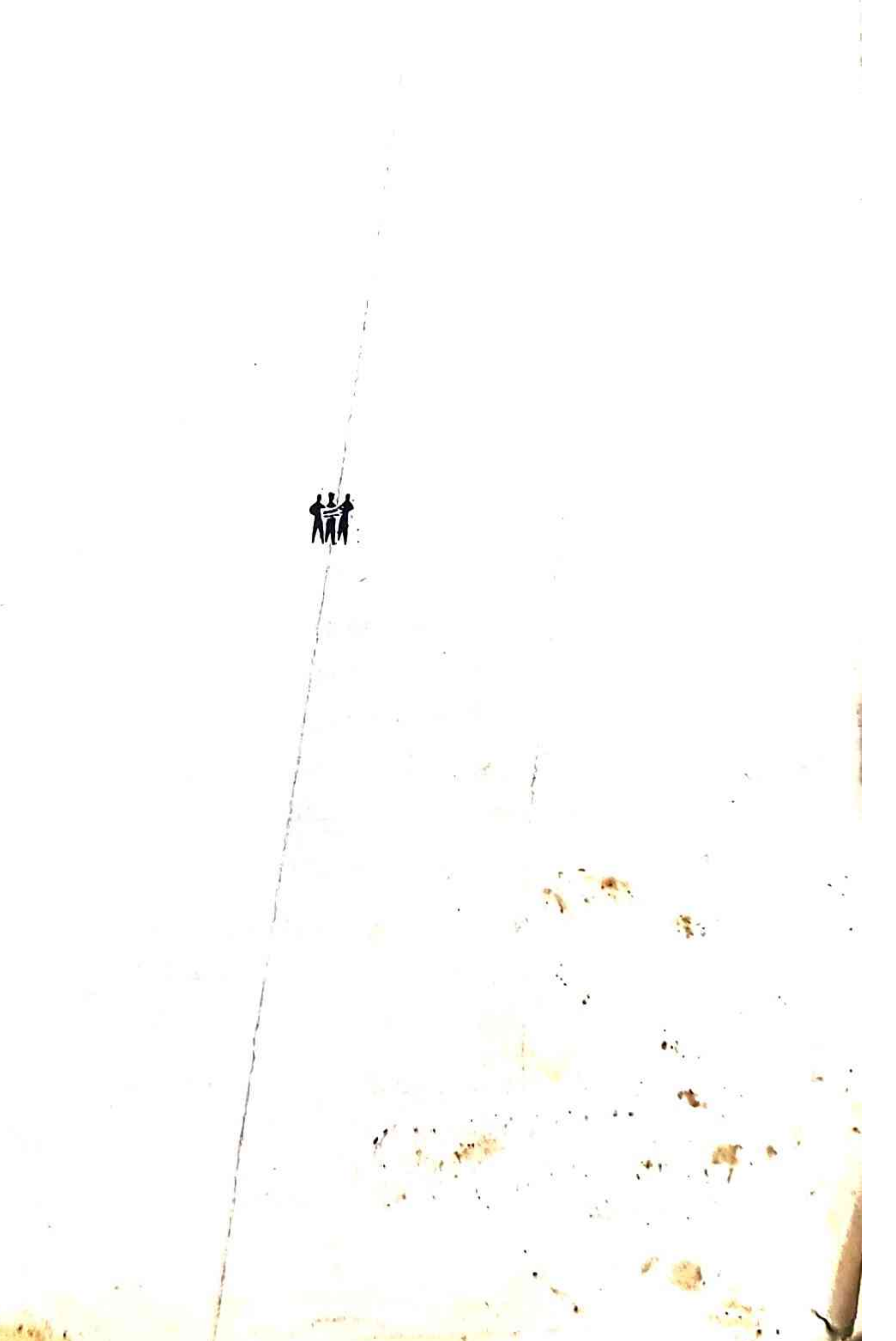
ولقد التهمت هذه الكتب ووجدت فيها متعة وفائدة ، وإني مؤمن بأن هذا الباب الذي فتحتموه إلى رياض المعرفة والثقافة والشجاعة والعمل والمثابرة سيكون طريقاً للنجاح ، ودنيا لجيلنا وأجيال الشباب أيضاً .. ولعل الشباب في أمس الحاجة إلى مثل هذه المفاتيح في عصرنا ، عصر القلق والضياع والانتماء والمتاهات الكبرى ...

« الناجحون » سلسلة تضيف صفحة مشرقة إلى سجل « دار العلم للملايين » . وإني كأستاذ جامعي ، وأب ، ومرب ، أهنئكم وأهنىء الذين أسهموا في هذه السلسلة ... » .

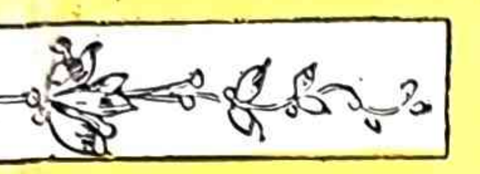
الدكتور محمود محمد الحبيب

الأستاذ المساعد في الاقتصاد

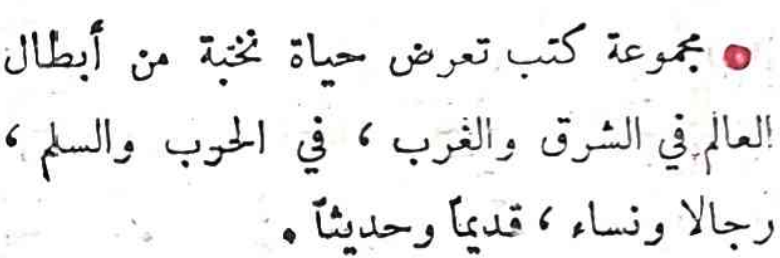
البصرة — العراق







النَاجحونَ



- بمجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب ، في الحروب والسلم ، رجالا ونساء ، قديماً وحديثاً .

- تقدمها دار العلم للملايين الى الفتيان والفتيات الذين يريدون أن ينجحوا في الحياة .

- يقول المثل : ان النجاح يجر النجاح فتعرّف إذن الى الناجحين يسهل عليك تحقيق النجاح .

- أشرف على وضع هذه الكتب عدد من رجال التربية وعلم النفس في العالم العربي لتكون مدرسة حية لفتيان اليوم ورجال الغد .

الثمن : ٣٠٠ ق.ل. دَارالعِلم للمَلايين
بيروت